

# الكتاب الأول

## المغرب قبل الحماية

- ١ ( تقديم المغرب
- ٢ ( ماضى المغرب
- ٣ ( مساهمة العبقريّة المغربيّة في الحضارة الانسانية
- ٤ ( نظرة دبلوماسية عن المغرب
- ٥ ( نظام المغرب قبل الحماية

## تقديم المغرب

يحتل المغرب بأفريقيا الشمالية موقعا لا مثيل له فله واجهتان احدهما على المحيط الأطلسى والأخرى على البحر المتوسط وهكذا يتحكم المغرب فى مضيق جبل طارق الذى يعد من أهم طرق العالم • والمغرب أقرب شاطئ أفريقي الى أوروبا •

وسيصبح بفضل موقعه الجغرافى والاستراتيجى الممتاز صلة الوصل بين الشرق والغرب وبين أفريقيا وأوروبا وأمريكا كما كان فى القرون الوسطى صلة الوصل بين الشرق وأوروبا •

وكان القطر المغربى قبل الحماية يمتد الى ما وراء حدوده الحالية • ولكن فرنسا وأسبانيا اقتطعتا منه نواحي شاسعة كتوات وشنجيت وايفنى وغير ذلك • وكان من نتائج عقد الحماية أيضا تجزئة المغرب الى عدة مناطق :

أولا - منطقة تحت الحماية الفرنسية « عاصمتها الزباط »

ثانيا - منطقة تحت النفوذ الأسباني « عاصمتها تطوان »

ثالثا - منطقة تحت الادارة الدولية « منطقة طنجة »

رابعا - منطقة استولت عليها أسبانيا فى أقصى الجنوب « يفى وما إليها »

وسكان المغرب من الجنس الابيض وبعضهم شقر ذوو عيون زرقاء • وهم وان كانوا من أصل بربرى فان امتزاجهم بالعرب عقب الفتح الاسلامى منذ القرن السابع وكذلك طرق معيشتهم المتشابهة ووحدة معتقداتهم كل ذلك لم يعد يسمح اليوم بأن تنسب القبائل المغربية الى عنصر معين •

وقد كتب العسالم الجيولوجى الفرنسى دوطى فى ذلك ما يلى : « يمكن تقسيم المغرب الى ناطقين بالعربية وناطقين بالبربرية ورحالة ومقيمين وسكان سهول كما يمكن أن تميز من بينهم جماعات متشعبة قليلا أو كثيرا بالحضارة الاسلامية » •

ولكن من العبث تقسيم سكانه الى عرب وبربر اذ لا يستند ذلك على أى

دليل واضح من وجهة النظرية العلمية الحديثة وحتى من الواجهة «الانترفاية» وبعبارة أخرى فإن كلمات بربر وعرب وريفين وشلوح وأمازيغ إنما هي مجرد ألفاظ يستعملها الأجانب قصدا حسب هذه الناحية أو تلك وذلك للإشارة إلى جنس ليس هو في الحقيقة إلا جنسا واحدا •

والاسم القومي الوحيد الذي يجب أن يطلق على هذا الجنس هو الجنس المغربي والشمون إليه مغاربة •

وكثيرا ما قسم الكتاب الأجانب مغرب ما قبل الحماية إلى ما يسمونه ببلاد المخزن وبلاد «السيية» • وبلاد المخزن في نظرهم هو ذلك القسم من المغرب الذي يخضع لحكومة البلاد وادارتها ونفوذها على عكس بلاد «السيية» التي هي في عصيان وعداء يكاد يكون مستمرا مع الحكومة •

وقد أصاب الكاتب المسيو شوفل عند ما لاحظ أنه من الخطأ تصوير المغرب قبل الحماية على هذه الحالة فلم يكن هناك أبدا إلا قطر واحد كله مغربي له حدود واضحة منذ القدم وما يسمونه ببلاد السيية لم يفصل قط عن مملكة السلطان ولم يخرج عن طاعته قانونيا وواقعا وزيادة على ذلك فإن بلاد السيية المزعومة لم تعتبر أبدا بلاد المخزن بلادا عدوة كما أن بلاد المخزن لم تعامل بلاد السيية كبلاد أجنبية بل كاتتا معا جزئين من مملكة واحدة •

ولقد لخص المؤرخ الاجتماعي الكبير ابن خلدون الصفات المميزة للمغاربة فقال عنهم أنهم شعب قوى مهاب بأسل كثير العدد كغيره من شعوب العالم الكبرى وأنه تصدر عنهم أشياء خارقة للعادة مثيرة للاعجاب إلى حد يستحيل معه انكار العناية العظمى التي خص الله بها هذه الأمة • ومن مميزاتهم أيضا تعلقهم الشديد بالحرية والاستقلال • فهم ينقلبون ما بين عشية أو ضحاها إلى جنود يدافعون عن استقلالهم المهدد بقوة لا تقهر • فليس بشعب العبيد هذا الشعب الذي أمكنه طيلة عشرين قرنا أن يبقى هو هو صامدا أمام الفاتحين على اختلاف أنواعهم وأن يجد من بين أفراده رؤساء يسهرون على حرته •

وقد كانت اللغة العربية دائما هي اللغة الرسمية للبلاد منذ الفتح العربي وبجانبها عدة لهجات بربرية ولم تكن هذه اللهجات يوما من الأيام لغة مدونة

وكان عدد سكان المغرب خلال عصور التاريخ يتغير بتغير خريطة حدوده السياسية ويمكن أن يقدر اليوم مجموعه باثني عشر مليوناً تقريباً منها فيما يخص المنطقة الواقعة تحت الحماية الفرنسية (حسب احصاء فاتح مارس ١٩٤٧)

من المسلمين	٨٠٨٨٥٥١
من اليهود	٢٠٣٨٣٩
من الأجناب الأروبيين	٣٢٤٩٩٧

ويعد المغرب من أكبر البلدان استعداداً للانتاج فيما يخص الموارد الطبيعية وذلك بفضل لطف مناخه ووفرة مياهه وخصب ترابه وثروته المعدنية وتنوع أشكال نواحيه .

فلا عجب اذن أن تتجه أنظار الشعوب الى القطر المغربي في مختلف العصور وان تصفه بجوهرة أفريقيا الشمالية ولذلك صار يطلق عنه في بعض الأحيان اسم كاليفورنيا الافريقية .

وكانت أراضي الترس المغربي ( التربة السوداء ) مشهورة بخصوبتها استغلّت في كل زمان وكان سكان البلاد قبيل الحماية يحرثون بانتظام ثلاثة أرباع الأراضي الترس .

وكثير من الحبوب كانت تصدر الى أوروبا . قال ليوطي : « لما ذهبت أول مرة للمغرب سنة ١٩٠٨ تأثرت أشد التأثر من رؤية ممتلكات شاسعة الاطراف محروثة حرثاً جيدة ومحدودة تحديداً واضحاً تحيط ضيقاً حقيقية . وكل هذا كان من عمل الاهالي فاندثشت من ذلك اندهاشاً عميقاً » .

وكان المغرب في العصور القديمة يمد روما بكل ما تحتاجه من الحبوب فكان لها بمثابة مخازن .

وفي القرن السادس عشر كان يشتري رخام ايطاليا الثمين بوزنه من سكر سوس والى غاية القرن الثامن عشر كان المغرب يصدر كميات وافرة من السكر الخام الى مرسيليا وفلاندا ومن الثابت أن القطن في القديم كان يزرع بكثرة في المغرب وكانت الثياب القطنية قبل الحماية تنسج من

خيوط مصنوعة بالبلاد ، وكان صناع الحرير يجدون كذلك بداخل البلاد ما يحتاجونه من حرير •

وفي المغرب غابات شاسعة لا في الجبال الشاهقة فحسب ، كالارز والبلوط والعرعار وغير ذلك ، بل حتى في السهول الموالية للمحيط الاطلسي « كالصنوبر والارجان وغير ذلك • »

وكذلك المناشية ، فهي كثيرة متنوعة والمرينوس الذي هو صنف من القطن مشهور في أوربا بجودة صوفه والذي كان المغرب يصدره اليها بكثرة بواسطة أسبانيا على عهد الدولة المرينية يرجع الى أصل مغربي واسمه مشتق من اسم تلك الدولة ، وكذلك الجلد المعروف في أوربا بالمارو كان فهو من المنتوجات المغربية الخالصة كما يدل عليه اسمه •

وأسماء المغرب كثيرة متنوعة ، ففيها أصناف المحيط الاطلسي والبحر المتوسط وشواطئ موريطانيا والسنغال • وهذا المزيج الغريب من أسماك بحار باردة وبحار حارة يجد في الشواطئ المغربية العناصر الملائمة لنموه

ويعتبر صيد الحوت اليوم من الثروات الاساسية بمينائي اسفي وأجادير وان الثروة الكامنة في باطن الارض لاتقل أهمية وتنوعا عن ثروة وجه الارض ففي السهول والجبال عدد كثير من المناجم • كالفوسفات والحديد والرصاص والزنك والبتروول والمنغنيز وغير ذلك « ... وفي القرن العاشر كان الزئبق والرصاص والحديد والذهب تصدر باستمرار من المغرب •

ويؤكد الجغرافي البكري أنه يوجد بجبل قرب تازا ذهب خالص جيد وذكر ابن الوزان في القرن السادس عشر أن الناس كانوا يستخرجون مقدارا كبيرا من الحديد بالاطلس وكان يباع في وجهات مختلفة

وكانت التجارة بالمغرب قبل الحماية مزدهرة جارية مع أوربا وتركيا ومصر والسودان والسنغال وباقي أفريقيا الشمالية وكانت الصادرات باستثناء السجاجيد والبلاغي - الاحذية المغربية - تكون من المحصولات الفلاحية

الجلود المدبوغة والماشية والمزروعات والزيت والمعادن والشمع وغير ذلك . . . وكانت ثمان مراسى مفتوحة اذ ذاك للتجارة . وفي أوائل هذا القرن كانت قيمة المبادلات التجارية تقدر بستين مليوناً من الفرنك ( وذلك خلال سنة ١٩٠٧ ) نصفها للواردات ونصفها للمصادرات .

ومن الجدير بالذكر في نهاية هذا العرض أن مغرب الامس كانت له صناعة نافقة ويكفى أن نورد في هذا الصدد شهادة للمؤلف الفرنسي بيكس حيث قال في بداية الحماية :

يصب على الناس في فرنسا أن يتصوروا المغرب كبلاد متمدنة بها مدن عظيمة ذات صناعات مزدهرة ولكن في الحقيقة ان كانت القبائل الجبلية حافظت على حياتها البدوية فإن المدن المهمة التي ازدهرت فيها مدينة راقية قد تجمعت فيها حركة صناعية مماثلة لما كان يوجد اذ ذاك بجميع البلاد قبل نمو الصناعة الميكانيكية .

« وكل مدينة من مدن المغرب أحرزت شهرة كبيرة في بعض الصنائع ففاس مشهورة بشبابها الرقيقة ومطروزاتها وصياغتها الرقيقة وأوانيها الخزفية . ومراكش وتطوان مشهورتان بأنواع الجلود والاسلحة والرباط وآسفي مشهورتان بالسجاجيد والاقمشة والاعطية .

وكان بفاس عاصمة المغرب خلال القرون الاخيرة حرف منظمة عد منها ابن الوزان الكثير ، وأشار بالخصوص الى ٥٢٠ داراً للنسج قائمة على هيئة قصور عظيمة محتوية على عدة طبقات وكان عدد النساجين يبلغ عشرين ألفاً .

وفي فاس كذلك صناعة مزدهرة لدبغ الجلود واخراج مصنوعات مختلفة منها وهي وان لم تكن أهم أسواق الجلد في المغرب فان بها من الدباغين عددا لا يقل عن ثلاثة آلاف .

يضاف الى هذه الصناعات ازدهار الفن المعماري وبالاخص بفاس المشيدة على أبداع شكل حيث القصور الكثيرة المزخرفة أحسن الزخرف فيها عدد

وأفر من البنائين والجباصه « والزلايحية » ( صانعي الفيسفا ) والصبانين  
يوجد من بينهم ماهرون فى تلك الصنائع وفنانون حقيقيون .

وختم الكاتب بيكى هذا الكلام بقوته :

« ينبغي لنا اذن أن ندرك أننا هنا لسنا ببلاد متوحشة يجب أن يحدث  
فيها كل شيء بل نحن ببلاد فى حالة اجتماعية متأخرة ولا شك عن حالتنا  
ولكنها ممثلة لما مرت عليه جميع البلاد الاوربية بل من البلاد الاوربية من  
لا تتعد كثيرا عن حالة المغرب الراهنة .

\*\*\*\*\*

# ماضى المغرب

ان الاسلام قد جعل من هذا المغرب الذى طالما أفضت مضاجعه وطمعت فيه شعوب مختلفة - بلادا كبرى ستصبح ابتداء من القرن التاسع الميلادى مركز امبراطورية شاسعة تمتد من ضفاف نهر الايبر بأسبانيا الى تخوم ليبيا ، وتقوم بدور عظيم فى تاريخ حوض المتوسط الغربى ، والمؤرخ النزيه لا يسعه الا أن يعترف بأن المغرب لم يستطع أن يكون لنفسه تاريخا وطنيا حقا الا بفضل الاسلام وتحت ظله . فالمغرب مدين لدولة الادارسة الذين هم أول أسرة اسلامية تربعت أريكة العرش المغربى ، بأول تنظيم ذاتى عرفته البلاد ، فكان ذلك مبدأ اتصاله الحقيقى بالحضارة العربية ، وما لبث سكان المغرب أن انضوا بكل اخلاص تحت راية العرب دعاة الدين الجديد ، واندمجوا فيهم ليكونوا جميعا منذ المائة الثامنة ميلادية أمة حرة مستقلة حتى عن بقية العالم الاسلامى وهذا الانقلاب قد تم تحت ظل نظام ملكى متصل الحلقات ضمن تخوم محدودة واضحة ، وبفضل جيش تمكن من رفع المغرب الى ذروة عظمته ، وأضفى عليه من الاهمية ما لم يكن له فى سابق عصور تاريخه .

ومما يؤسف له أن هذه الاهمية التى اكتسبها المغرب لم يحفل بها كثيرا معظم من أرخ له من الاوربيين ، وبالاخص منهم الفرنسيين ، الذين نصبوا أنفسهم للاشادة فى حرارة وحماس بالاحتلال الرومانى ، وحفزتهم عواطف عنصرية الى رسم صور قاتمة عن حياة المغاربة تحت ظل الاسلام ، وذلك لمحاولة ابراز ما جناه المغرب فى زعمهم من فوائد بعد سيطرة النفوذ الفرنسى عليه . وهكذا فان ما سطره هؤلاء عن تاريخ المغرب يخلو غالبا من النزاهة التى هى أخص ميزات المؤرخ ، فأغلبهم يجهد نفسه لاظهار مغرب الامس فى صورة بلاد يعيش فيها خليط من القبائل الفوضوية ليس بها انسجام ، دائمة التمرد على السلطة المركزية والتطاحن فيما بينها فريسة للظلم والبؤس والابوثة ، الى حد أن الانسان لا يتمالك عن أن يتساءل كيف أمكن لهذه الجماعات التعيسة أن

تغالب هذه المجاعة وتلك الامراض وبأية معجزة استطاع المغرب الاسلامى أن يحرز انتصارات دبلوماسية وعسكرية رائعة وأن يبسط عمله التمدينى خارج الحدود المغربية .

ولسنا نرمى من وراء العرض المجهل الآتى الى ارتكاب نفس الغلط والفلو فى الاشادة بالماضى المغربى بحيث نجعل من تاريخه شبه أسطورة بديعة ، فان المغرب هو ككل من فرنسا وأسبانيا ، وكذلك باقى الامم قد عرف خلال تاريخه فترات اضطراب وأزمات حكومية وانهزيمات عسكرية .  
فإذا نحن حاولنا استعراض تاريخ الدول التى تعاقبت على هذه البلاد فما ذلك الا قياما منا ضد تلك الفكرة الشائعة التى تزعم أن المغرب عاش دائما « عصورا مظلمة » .

فقبيل انبساط الحماية كان المغرب حقا فى اضطراب ، فلم تكن فلاحه البادية بالثبات التى كان ينبغى أن تكون .  
ولكن يجب أن لا ننسى أن ذلك لم يكن سوى نتيجة ان لم نقل سببا للتدخل الاوربى فى هذه البلاد .

فهل يمكن لاحد ياترى أن ينكر ما كان من سطوة للامبراطوريات التى ازدهرت على التوالي خلال تاريخ المغرب ، فقد اعترف المارشال ليوطى قائلا :

« كلما ازددت اتصالا بالمغاربة وكلما طال مكثى فى هذه البلاد الا وازددت اقتناعا بعظمة هذه الامة ، فبينما لم نجد فى نواح أخرى من أفريقيا الشمالية سوى مجتمع يكاد يكون فى حكم العدم نتيجة الفوضى وعجز أولى الامر اذا بنا قد وجدنا فى المغرب امبراطورية قائمة الذات ، وحضارة مزدهرة يانعة ، وذلك بفضل استمرار السلطة واستتبابها خلال الدول التى تعاقبت على الحكم ، وكذلك بفضل استمرار المؤسسات القومية الجوهرية التى بقيت قائمة رغم الانقلابات » .

فسنعمل اذن فى العرض الآتى على اعادة المساء الى مجاريها ، وانصاف الاحداث الكبرى التى تخللت تاريخ المغرب الى ٣٠ مارس ١٩١٢ وهو اليوم الذى فرضت فيه فرنسا حمايتها على هذه البلاد .

# المغرب قبل الاسلام

ان المراكز التي أسسها الفينيقيون والقرطاجيون على سواحل المحيط الاطلسي وحدها منذ نحو ثلاثة آلاف من السنين لم يكن لها - على ما يظهر - تأثير سياسي داخل البلاد ، كما انها لم تترك آثارا بليغة في سكان المغرب على أن السيطرتين الفينيقية والقرطاجنية قد نتج عنهما الحيلولة دون وقوع أى اتصال بين المغاربة وبين الافريقيين الذين أمكن لحضارتهم أن تقلب العالم ، غير أن المكان الذي يحتله المغرب في الاساطير اليونانية يشهد بما تمتعت به هذه البلاد عند الاغريقيين من مكانة سامية ، فقد كان هؤلاء يعتبرونه جنة تستوطنها كائنات تسمو عن سلالة البشر ومن ذلك تصويرهم لجبال الاطلس وهي تحمل على كواهلها أعمدة السماء ، وكذلك ما يتصل من أساطير بحديقة « هسبريد » الغناء ذات تفاح من ذهب وبارض « اتلانطيد » التي خلد افلاطون ذكرها في احدي رسائله •

وما كاد يبدأ تفهقر القرطاجيين حتى توحدت البلاد المغربية واستعاد ملوكها نفوذهم بسرعة ، فاستولى أحدهم على المراكز المتشرة على الساحل وجعل من طنجة عاصمته •

أما الاستعمار الروماني فانه كان محنة كبرى للبلاد ، غير أن رومة كان يلذ لها - كما يلذ اليوم للمستعمرين - أن تستغنى بماثرها في هذه البلاد ، زاعمة أنها لم تحتل البلاد عن طمع ، وانما خضوعا منها لمقتضيات عسكرية ، ومع ذلك فان خصب التراب المغربي كان ولا شك الدافع الاساسي لهذا الاحتلال ، وليس من العبث قولهم بأن المغرب كان منجم حبوب رومة •

وبالرغم عما بذلته روما من جهود لم تستطع أن تبسط سيطرتها الا على منطقة طنجة التي لم تكن تتجاوز وادي أبي رقرق ولم تتمكن الجالية الرومانية أن تستقر بعدد كبير من أفرادها الا في سبتة وطنجة والارباض المجاورة لمدينة ويلي • أما في باقى البلاد فان رومة لم تكن لها أية سلطة ولا حتى مجرد نفوذ

على أى منطقة لم تكن خاضعة لولاية رومانيين • كما كان الشأن فى أفريقيا الشمالية ، وانما كان يشرف عليها وكيل أو مندوب عن روما ، فلم تكن القبائل تخضع مباشرة لحكم موظفين رومانيين ، بل كان يحكمها رؤساء يختارهم أعيان البلاد •

غير أن السيطرة الرومانية على شمال المغرب كانت مع ذلك محنة كبرى لاستقلال البلاد ، ذلك الاستقلال الذى يعرف المغاربة كيف يدافعون عنه ، وذلك باظهارهم خلال العصور ما يمتازون به من خصال حربية ، ولكن تلك السيطرة لم تتم الا بسبب خيانة الملك بوخوس الذى سلم الى الرومانيين خصمهم الالد يوغرطا فلم يفلت بوخوس هذا من المصير المحتوم الذى قدر لحونة الوطن حيث دمر بيديه ما كان فيه من استقلال •

واذا كانت روما لم تستطع أن تستمر مدة طويلة فى المغرب فما ذلك الا لسببين :

أولاً - أن امبراطورية الرومان كانت تحمل بين جنبها جرائم الانهيار ، فقد أسست هذه الامبراطورية بالقوة ولم يكن يتأتى لها أن تحفظ نفسها الا بالقوة •

ثانياً - ان المغاربة نجحوا فى الاحتفاظ باستقلالهم فى معظم أنحاء البلاد بفضل ما امتازوا به من مرونة ظاهرة تتوارى تحتها روح مقاومة جبارة للاجنبي فاستقلوا استقلالهم الجرىء للقضاء على احتلال الجزء الباقى ، واذا كان مغاربة الشمال قد ظلوا خاضعين للرومان أثناء تلك المدة ، فان هؤلاء لم يستطيعوا ادماجهم ولا حتى كسب حيادهم ، فلم يكن ذلك السلام الظاهرى ليسود الا بالقوة بين الرومانيين الذى يفرض سيطرته ويغتصب الاراضى ، وبين المغربى الصامد التى انتزعت منه أراضيه ، ولكن بمجرد ما تضعفت هذه القوة فى منتصف القرن الثالث الميلادى أصبحت ثورات الشعب المغربى موصولة الحلقات بعد أن كانت تشب بين الحين والحين ، ويمكن القول بأن تأريخ أفريقيا الرومانية ليس سوى تاريخ ثورات شعوب عيل صبرها ، وكان المغاربة كلما احتدمت الحرب بين روما وأعدائها ينضمون تارة افئة ، وتارة لفئة أخرى رغبة فى التمرن

على الكفاح واضعاف السلطة الرومانية ، وقد أسفرت المسيحية عن نتيجة غريبة وهي أنها أعطت لسكان البلاد فرصة للثورة ، فان حركة الخوارج الذين تزعمهم الاسقف « ضونات » قد تمخضت عن مقاومة المغاربة وازدوجت هذه الحركة بحركة اجتماعية قام بها سكان البادية الذين أفقرهم الاحتلال الروماني ، فكان من هذه المقاومة المضاعفة أن خضعت نهائيا شوكة نظام الرومان العسكري .

غير أن هذا الكفاح الشديد المتواصل الذي قام به المغرب لطرد الرومان قد أنهك قواه الامر الذي ساعد الوندال على النزول بترابه دون أن يصطدموا بمقاومة ، وبما أن الوندال من السلالة الآرية فقد أحسن استقبالهم الاهالي من الخوارج أتباع « ضونات » الذين اعتبروهم بمثابة محررين ، ولكن من حسن الحظ أنهم لم يمرؤا بالمغرب الا مرا لطيفا فعاد أصحاب البلاد بعدهم الى مسك زمامها فانهارت تحت الانقاض سيطرة روما على أفريقيا وانشق المغرب من جديد منذ القرن الرابع الميلادي فاستعاد حياته الخاصة ، أى استقلاله الوطنى الكامل .

ومن ذلك يتجلى أن تاريخ الشعب المغربى فى العصور القديمة جدير بالاهتمام ، فقد هزمت جيوشه قرطاجة ورومة ، وهاتان الدولتان القويتان الفيتان لا تحتلان سوى حيز وجيز فى التاريخ المغربى لانه لم يتح لهما قط احتلال قلب البلاد ، وبينما اندرست هاتان الدولتان من المغرب دون أن تتركا أى أثر فان العرب استطاعوا على عكس ذلك أن يتبوأوا مكانة تعظم مع الايام .

# الفتح الاسلامى

ان فتح العرب للمغرب قد حقق فى النهاية ما لم يستطع القيام به خلال قرون طويلة الفينيقيون ولا القرطاجيون ولا حتى الرومانيون لان العرب تمكنوا من ادخال المغاربة بسرعة فى حظيرة الاسلام وادماجهم تدريجيا الى حد امتزاج السلالتين ، والى حد أنه أصبح من المتعذر تحقيق أصل القبائل فى كثير من النواحي •

فحوالى سنة ٦٨٢ أى بعد مرور نصف قرن على وفاة الرسول عليه السلام توغل عقبة بن نافع ، مؤسس مدينة القيروان بالجيش الاسلامى داخل التراب المغربى وقضى على ما بقى من آثار دولة بيزانس التى استقرت للمرة الثانية فى المغرب ، كما قضى على كسيلة والكاهنة اللذين انبريا للمقاومة العظيمة • ولكن نجاح الفتح العربى لم يتم الا فى أوائل القرن الثامن الميلادى ، بفضل حملة موسى بن نصير الذى يعتبر الفاتح العربى الحقيقى للمغرب •

وفى عام ٧٠٩ كان المغرب قد ألحق سياسيا بامبراطورية الخلفاء الشرقية • وبعد ذلك بأقل من سنتين ، اجتاز جيش هائل تحت قيادة بربرى مسلم ، هو طارق بن زياد ، المضيق ونزل أسفل الجبل الذى لا يزال يحمل اسمه ، وهو جبل طارق ، وقد كان البرابرة يؤلفون معظم الجيوش التى حاربت فى أسبانيا ، ووصلت الى جنوب فرنسا عام ٧٣٢ •

وهكذا ساهم المغرب فى المعارك طوال مدة فتح أسبانيا ، أكثر من أى قطر اسلامى آخر •

وينبغى أن نفرق بين القبائل العربية الوافرة العدد التى اكتسحت أفريقيا الشمالية خلال القرن الحادى عشر المسيحى ، وبين الفتح العربى الذى تم بعد فى القرن السابع • ولم يكن سوى كتائب من الفرسان اخترقت امبلاد ، وخلفت وراءها أفرادا من العرب المسلمين لم يلبثوا أن اكتسبوا نفوذا عظيما بالرغم عن قلة عددهم •

ولا يمكننا أن نجد سر هذه السرعة المدهشة التى تم بها الفتح واعتناق المغاربة للاسلام الا فى مزايا الدين الجديد رمز الوحدة والتحرير ، فبقدر ما كان عمل

رومة بالمغرب انانيا واهيا ، حيث لم تكن تهتم الا باستغلال خيرات البلاد بقدر ما كان الاسلام - كما يقول تيربى : « يتلاءم تلاؤما دقيقا مع مطامح شعب يهيم بالحرية قبل كل شيء ، وذلك نظرا لما يتسم به هذا الدين من تسامح فى روجه وبساطة فى معتقداته وصرامة فى مبادئه ، وديموقراطية فى روجه ، بل يمكن القول بأن هناك تجانسا بين النفسية البربرية وجوهر الاسلام بلغ من العمق مبلغا وجد العرب بفضلله فى المسلمين الافارقة حماة لهذا الدين لا تلين لهم قناة، ويجب أن نضيف لهذه العوامل المختلفة أن سلطة الخلفاء الذين كانوا يشرفون على المغرب من بعيد لم تكن لتضايق المغاربة على ما يظهر ، فان الخلفاء لم يكونوا يطالبون بغير اعتناق الاسلام بحيث يصبح المغاربة بعد ذلك مساوين للعرب فى جميع الميادين ، وفى هذا تفسير لذلك الانقلاب العجيب الذى جعل مصير المغرب يرتبط بمصير الاسلام ارتباطا لا يقبل الانفصام ، فغدا المغرب والاسلام خلال التاريخ أخوين فى السراء والضراء ، وان رسوخ قدم الاسلام فى المغرب لم يصحبه أى اضطهاد لاقليات بقيت تدين بالمسيحية واليهودية بكامل الحرية .

وهكذا فان المغرب بعد أن دخل فى حضينة الاسلام تعاقبت عليه دول اسلامية عظيمة .

### دولة الادارسة

بدأ صرح الامبراطورية العربية يتقوض باستيلاء العباسيين على الخلافة فى القرن الثامن المسيحى ، ففى أسبانيا انفصل المسلمون عن سلطة خليفة بغداد ، والتفوا حول الخليفة الاموى فى قرطبة ، وفى المغرب ازدوجت هذه الحركة الاستقلالية بحركة الحوارج الآتية من الشرق . غير أن هذه الحركات حوربت بصرامة رغم تمكنها من تأسيس دولة سيجلماسة وراء جبال الاطلس ، فلم تلبث دولة الادارسة أن رفعت لواء السنة ، وأعدت للبلاد وحدثها .

نزل المولى ادريس الذى نجا من اضطهاد الخليفة العباسى فى طنجة عام ٧٨٨ واستقر قرب اطلال مدينة ولى الرومانية ، وما لبث أن فتح لانصاره ميادين

جديدة للغزو وراء نهر أبي رقراق في نواح لم تستطع قط التوغل فيها جيوش الرومان ، وكان بها قبائل مسيحية ويهودية ووثنية هزمها بسهولة فدخلت في حظيرة الاسلام .

فقلق الخليفة هارون الرشيد وغار من هذا الانتصار الذي أحرزه المولى ادريس فدرس له من يقتله عام ٧٩٣ وخلفه نجله المولى ادريس الثاني الذي ولد له من بربرية فأصبح أميراً غير منازع على المغرب أجمع وناحية تلمسان وكان أول ما اهتم به وهو في شبابه تأسيس عاصمة لمملكته ، وهكذا أسست عام ٨٠٨ مدينة فاس التي استمدت لباب حضارتها من قرطبة والقروان ، وهما محط رحال المدينة الاسلامية في المغرب ، وقد ورد من هذين العاصمتين مهاجرون للاستيطان بالمدينة المغربية الجديدة وعند ما بنى جامع القرين أصبحت مدينة فاس أم القرى يؤمها العلماء والادباء فيستقبلون فيها بكل حفاوة ، وظلت هذه الجامعة التي هي أقدم جامعة في العالم خلال القرون التالية مركزاً من أهم المراكز الدينية والفكرية في العالم الاسلامي ، لهذا فان الادارسة هم أول من أدخل الحضارة الاسلامية الى المغرب وبتأسيسهم مدينة فاس كانت لهم المكانة السامية في جميع عصور تاريخ المغرب ، فمن فاس أشع على البلاد نور الفكر الاسلامي واللغة العربية .

وقد احتفظ الاولون من خلفاء المولى ادريس الثاني للمغرب بعظمته الى منتصف القرن الحادي عشر ، ثم انهارت قواهم فيما شب بعد من حروب داخلية .

\*\*\*\*\*

### المرابطون ( ١٠٥٣ - ١١٤٧ )

وبينما كان المغرب يقاسى خلال القرن الحادي عشر أزمة ما لبث أن استعصى أمرها بغزوات العرب الهلاليين وهم قبائل رحل انحدروا من بلاد الصعيد المصرية ، انبثقت دولة جديدة بسطت نفوذها وثقافتها نحو الشرق واستأنفت سياسة الفتح الاسلامي للبلاد الاسبانية .

وقد انبثقت هذه الدولة من وسط قبيلة قوية من قبائل الصحراء وكان مذهبها الديني يرتكز على نوع من سلفية صارمة والقضاء على كل ما من شأنه أن يؤدي الى حياة الميع والمجون ومن هذه القبيلة برز يوسف بن تاشفين

العبرى الذى كيون من رجال الصحراء والسهول والجبال قوة مؤتلفة منتظمة  
وفى عام ١٠٦٢ أسس يوسف بن تاشفين مدينة مراکش وجعل منها قاعدة  
عسكرية ومن هذه العاصمة صار يوجه حملاته التى بلغت عاصمة الجزائر  
ولكن ممالك الطوائف بالاندلس استغاثت به بعد استيلاء الفونسو السادس  
ملك قشتالة على مدينة طليطلة ، فلم يسع ابن تاشفين الا العودة الى المغرب من  
حيث عبر الى الاندلس على رأس جنوده وأحرز النصر الباهر فى واقعة  
الزلاقة الشهيرة عام ١٠٨٦ ، ولكن بعد ما شعر بضعف أمراء الاندلس  
وانقسامهم وعجزهم من أجل ذلك عن مقاومة الاسبان بجدوى ألحق أماراتهم  
بمملكته ثم دخل الى فاس فجعل منها عاصمة ملكه وغير معالمها وشيد فيها  
عدة بنايات وقد وصل المغرب فى عهده الى حضارة سامية وتمتع برفاهية  
وازدهار عظيمين ، وفى عام ١١٠٦ مات يوسف وقد أنهكه الهرم بعد أن كاد  
ينيف على المائة فخلف مملكة تمتد من السنغال الى نهر الايبر ومن المحيط  
الاطلسى الى الجزائر .

وقد تأثر ولده على الذى خلفه على أريكة العرش بالحضارة المغربية  
الاسبانية ، واحتفى به كما احتفى بأمراء الاندلس الذين ورث امارتهم كتاب  
وشعراء واشتغل له أرباب الصنائع والفنون فأسس فى فاس ومراكش وتلمسان  
عمارات تعد من بدائع الفن الاسلامى وحوالى عام ١١١٩ بلغت دولة المرابطين  
ذروتها حيث انبسط نفوذ أمراء فاس على جزر البليار بعد أن اعترف  
بسيادتهم على أسبانيا والمغرب .

غير أن دولة المرابطين لم تعمر طويلا لان مذهب الدولة الدينى الذى نشره  
مؤسسة وحماء لم يتلاءم مع ظروف الحياة الجديدة .

\*\*\*\*\*

### الموحدون

وعلى عكس المرابطين الرحل الواردين من الصحراء فان الموحدين كانوا  
قبائل قارة انحدرت من الاطلس ومؤسس الحركة الموحدية هو المصلح الدينى  
المهدى بن تومرت .

وكان من علماء الكلام ثورى النزعة مغربى الاصل ولكنه تعلم فى الشرق

قبعدا زار قرطبة التي كانت اذ ذاك معدن العلوم استقر في أوائل القرن الثاني عشر في شتى المراكز الثقافية بالشرق حيث تشبع بالروح الصوفية وعاد بعد ذلك الى المغرب حيث انصرف لتلقي نظرية تركز على التوحيد والزهد وطهارة الاخلاق وما لبثت القبائل التي أنضمت الى هذه الحركة ان كونت قادة جيش أصبح دعامة الدولة الجديدة .

وعندما مات ابن تومرت عام ١١٣٠ خلفه تلميذه عبد المؤمن الذي يمكن اعتباره من أبرز شخصيات المغرب لجمعه بين الشجاعة والذكاء والعزم والرصانة العقلية ففي بضع سنوات أصبح عبد المؤمن أمير المملكة جمعاء بدون منازع وانتظم جيشه فشرع في فتح اسبانيا قبل أن يتم استيلاؤه على كافة أنحاء المغرب ثم ملك قرطبة وغرناطة وأخضع بعد ذلك المغرب الاوسط واستولى على أفريقية ( تونس ) وبرقة وطرده النورمانديين من البلاد ( عام ١١٥٩ ) .

ولهذا الامير ماثر جليلة فقد كان نظاميا عادلا بسط في مجموع أنحاء المملكة أمنا ترعرعت في ظله الحضارة المغربية مطبوعة بميسم جديد من القوة وقد وضع نظاما جبايا وأمر بتكسير أفريقيا الشمالية الى فراسخ وأميال فشبّه عن حق بأعظم ملوك التاريخ .

وللمرة الاولى أصبح المغرب كله يؤلف دولة واحدة من الاندلس الى برقة وكان المغرب محور هذا المجموع ومركزه الجغرافي يتكون من القبائل المغربية قادته وحماته .

وقد بلغت دولة الموحدين ذروة مجدها في عهد المنصور (حفيد عبد المؤمن) الشهير باتتصاره الباهر على الاسبان في غزوة الاراك ( عام ١١٩٥ م ) وباستتباب الامن والنظام اللذين أقرهما الموحدون اتسمت الحضارة الاندلسية بمظهر ناصع فشجعت الورش البحرية والفلاحة وازدهرت المصانع فكان لهذا النشاط أثره في المغرب حيث اشتهرت سبتة بصناعة الورق وأصبحت معامل فاس تنتج كذلك كميات وفيرة من الورق ولم يكن المنصور قائدا عسكريا فحسب بل كان معماريا عظيما يشيد الصروح والقصور ولا تزال مآثره الرائعة كالرباط والقصر ومنارة أشيلة وكتيبة مراكش ومثذنة

حسان شاهدة بسعة وعظمة الاعمال الحضارية التي تصورتها وأبدعتها  
عبقرية هذا الرجل .

ففى عهده صار الاسطول الموحدى من أهم أساطيل العصر بل أصبح  
قابضا على زمام مجموع حوض المتوسط ولم يسبق للمغرب إخلال التاريخ أن  
كان له فى أقطار البحر المتوسط مثل هذا الأشعاع ومثل تلك القوة حيث  
أمسى جميع أمراء الشرق يخطبون وده ويسعون فى محالفته .

وقد عرفت البلاد كلها فى عهد الموحدين حياة ملؤها الرفاهية والازدهار  
اذ كان جميع أمراء الموحدين معماريين قد رقت أذواقهم ونمت فيهم حاسة  
الجمال وأحسن مثال لذلك تأسيسهم لمدينة الرباط فالمغاربة كما لاحظ مؤرخون  
أجانب قادرين لا على تأسيس المدن فحسب بل حتى على إنجاز ما تحتاجه  
هذه المدن من اشغال عمومية كبرى .

ولم تكن أفريقيا الشمالية تتعامل فى عهد الموحدين مع اسبانيا وحدها بل  
كانت تونس وبجاية وقسنطينة ووهران وتلمسان وسبته تتبادل بضائعها  
مع بيزا وجنوة والبندقية ومرسيليا وفى عهد الموحدين كذلك كان المسلمون  
أول من نظم أساليبهم التجارية حسب مقتضيات التبادل بين الدول وقد حسنوا  
هذه الاساليب فاستمد منها المسيحيون استمدادا واسع النطاق .

وقد زادت الثقافة الاندلسية المغربية أيضا فى سمعة الموحدين بكافة أنحاء  
العالم الاسلامى وازدان البلاط الموحدى بابن طفيل وابن رشد اللذين كانا  
أعظم فلاسفة العرب فى القرن الثانى عشر الميلادى وقد كان لهما أثر بليغ فى  
فلسفة القرون الوسطى ما لبث أن طبع المسيحية نفسها .

وأخيرا ينبغى أن نلاحظ أن سعة نطاق هذه الامبراطورية الموحدية  
الشماسعة كان أهم أسباب ضعفها فقد بدأت المقاطعات النائية تتحلل من نفوذ  
أمراء هلهمت معنويتهم حياة البذخ والمرح وكان عليهم أن يفسحوا المجال  
لدولة جديدة .

\*\*\*\*\*

### المرينيون

يرجع أصل المرينيين الى المغرب الشرقى وقد امتدت دولتهم من القرن

الثالث عشر الى القرن السادس عشر ولم تهدف هذه الدولة كسابقتها الى اصلاح دينى أو تقويم خلقى وقد شمل حكم المرينيين علاوة على المغرب ناحية تلمسان وامتد نفوذهم الى أفريقية ( تونس ) واجتازوا هم أيضا الى عدوة الاندلس فأحرزوا النصر على الاسبان فى غزوة شهيرة ( ١٢٧٥ م ) دمروا فيها الاسطول المسيحى •

ويتلخص من كل ما خلفه لنا المؤرخون وبالاخص ابن الوزان أن المغرب عاش فى رفاهية كبرى طوال قرنين اثنين تحت ظل بنى مرين فقد كانت المدارس والقرى عديدة غنية سواء فى السهول المحاذية للمحيط الاطلسى أم فى ناحية فاس أم فى هضاب الاطلس ونجوده وكانت أقصى أنحاء الجبل تنعم بتمام الطمأنينة والوداعة وفى العهد المرينى أصبحت فاس مدينة كبرى تتجاوز عظمتها بكثير ما يتخيله الاجانب عن ماضى المغرب وكانت ناحية الشاوية بالخصوص زهرة جميع النواحي الاخرى لانها كانت تحتوى وحدها على أربعين مدينة وثلاثمائة قصر يسكنه أهل القبائل المختلفة •

والمغرب مدين لهذه الدولة بتأسيس فاس الجديد وتطوان وبناء مدارس ومعاهد وابداع مآثر الفن المغربى التى تنافس أجمل آثار الاندلس من حيث الروعة والانسجام •

وقد انهارت قوات المرينيين مع الاسف فى حروبهم المتواصلة مع أمراء تلمسان وتونس وبذلك استطاع الاسبان أن يكسحوا الاندلس باحتلال غرناطة عام ١٤٩٢ وهى آخر مملكة اسلامية فى أسبانيا استطاعت أن تحتفظ بوجودها خلال ما يقرب من قرنين واحتل البرتغاليون والاسبان كذلك عدة مراكز من الساحل المغربى •

\*\*\*\*\*

وهناك من ينتقد على الدول الثلاث السالفة توسعها خارج حدودها الجغرافية وسلوكها بذلك سياسة المغامرات والطموح للعظمة الامر الذى استنفد موارد وطنية هائلة دون أن تعود من ذلك على البلاد أية فائدة مهمة ويلوح أن هذا الحكم قاس جدا لان الوقائع التاريخية تشهد بأن المغرب كان من شأنه أن يفقد حياته لو وقف موقف المتفرج من زحف جيوش الرمانديين فى الشرق والملوك

الكاثوليك في الشمال وهي تشهد أيضا بأن أسبانيا كانت تذكيتها مطامح أخرى حيث انها قامت عندما ضعف المغرب بعد ذلك بحملة على الساحل الأفريقي أسفرت عن أسوأ المصاعب للحكومة المغربية •  
ومهما يكن فإن ما قامت به هذه الدول من جهود لبسط الأمن والحضارة في كل من اسبانيا وأفريقيا الشمالية لا يزال للمغرب مفخرة خالدة •

\*\*\*\*\*

### السعديون

وابتداء من القرن السادس عشر اضطرت الحوادث الخارجية المغرب الى الانطواء داخل حدوده وقد حارب المغاربة هذه المرة فوق ترابهم لان عوامل جديدة أجبرتهم على هذا الانطواء •

وهذه العوامل هي :

- ١ - وصية ايزابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة التي عبرت عن فكرة الانتقام وأمرت بغزو أفريقيا ومحاربة الخارجين عن ملة المسيح •
- ٢ - المعاهدة الاسبانية البرتغالية المبرمة عام ١٤٩٤ تحت رعاية البابا والتي حددت الخط الفاصل بين الغزوات التي تقوم بها كل من البلدين في المستقبل وخولت للبرتغاليين معظم السواحل المغربية •
- ٣ - غزو الاتراك للمقاطعات التونسية والجزائرية •

والحق ان هذا الانطواء لا يرجع الى بغض الاجانب كما يدعيه بعض الكتاب الاجانب لان الميزة التي طبعت الدول التي تعاقبت على المغرب الى هذا العهد هي التسامح أزاء المسيحيين فالبرغم عن النجاح الحارق الذي أحرزه الاسلام في المغرب ظل أولئك الذين احتفظوا بديانتهم المسيحية في مأمن من كل اضطهاد أو مطاردة وفي القرن الثالث عشر أسست أسقفية بفاس ثم نقلت الى مراكش وكان المسيحيون متوافرين اذ ذاك بالمغرب حيث أن المرابطين والموحدين أدخلوا في جيوشهم كثيرا من الجنود المسيحيين الذين كانوا يؤدون طقوسهم بكل حرية مرفوقين بقساوستهم وكانوا يعيشون جميعا في أمن وأمان وكان سلاطين المغرب يتبادلون مع الاقطار الاوربية مكاتيب حول الكنيسة بالبلاد واستمرت العلاقات الطيبة مع المسيحيين في العهد المريني ولم

يتفاهم الخلاف بين المسلمين والمسيحيين الا بعد شوب الحروب الاسبانية •

أما القرصنة فمن المفيد أن نشير الى أنها لم تكن قاصرة على المغاربة وان المسيحيين هم الذين أعطوا المثل الاوول فى ذلك فان القراصنة المسيحيين الذين كانوا بسردينيا وكورسيكا وصقلية ومالطة لم ينقطعوا عن مطاردة السفن المغربية والأفريقية عموما والأغارة على الساحل ويروى المؤرخون الاوربيون أنفسهم أن الامم المسيحية كانت تحاول بالساحل المغربى أن تقوم باغارات يصعب تبريرها •

أما العلائق التجارية مع الدول المسيحية وكان الطابع الذى ما فتىء يسود هذه العلائق هو الوداد وكانت بيزا ومرسيليا وجمهورية جنوة ومقاطعة بروفانس تعقد مع المغرب صفقات كما كانت لميورقة وبرشلونة وليفورن علائق تجارية مع المغرب ولكن هذا العصر الزاهر انتهى بغزو البرتغاليين والاسبان لسواحل المغرب فى القرن السادس عشر على الخصوص ذلك أن البرتغال التى كانت تسعى فى توسيع نطاق تجارتها البحرية قد أقامت فى طريق الهند سلسلة من المراكز واحتلت عدة موانئ مغربية وأسست كلاً من الجديدة وأجادير ولم يكن البرتغاليون يختلفون عن سلفهم الرومان حيث كان مهمهم الوحيد هو استغلال البلاد فقد استخلصوا من المغرب موارد هائلة ولم يتخرجوا عن نهب المقاطعات ولم يتردد ملك البرتغال الذى حمل منذ سنة ١٤٧٥ لقب ( فادى الاسرى ) فى اختطاف المغاربة وبيعهم بنفسه كعبيد فى أشبونة •

وقد قام الاسبان من جهتهم فى الساحل المغربى بحرب صليبية فاستولوا على مراكز وانبعث الاسلام هو الذى أنقذ المغرب من هذا الغزو المزدوج اذ بينما تجلى هذا الانبعث فى باقى أفريقيا الشمالية فى انسياط سيطرة الاتراك اذ اذ به ينتهى فى المغرب على العكس من ذلك بظهور دولة السعديين فقد تغفل ما نادوا به من حرارة دينية فى طبقات الامة وامتزج بوطنية غريزية ولم يتردد السلطان السعدى محمد الشيخ فى قبول تحالف مع اسبانيا وقد تمكن المغرب بفضل حياذ اسبانيا واستئناف علائقه الطيبة مع انجلترا من اشهار الحرب على البرتغال وبذلك تم النصر للمغرب فى معركة وادى المخازن قرب القصر ( عام ١٥٧٨ ) حيث قضى القضاء المبرم على الجيش البرتغالى وحيث صرع

الدون سبتيان ملك البرتغال وقد أبرزت • هذه المعركة الكبرى افلاس الحملات الصليبية التي كانت البرتغال تة يوم بها ضد المغرب وقد فقدت تلك

البلاد استقلالها خلال أزيد من نصف قرن وألحقت بأسبانيا •

وهكذا استطاع المغرب أن يستعيد سمعته ويعزز استقلاله ووحدته فهبت البلاطات الاوربية التي أبر فيها ذلك الانتصار تأثيرا بليغا لتعقد روابط وعلاقات مع البلاط المغربي وتحظى بمحالفته فمن ذلك ان انجلترا عرضت عليه حلفا ضد الاسبان بل اقترحت عليه غزو الهند الاسبانية مع الاشتراك في تحمل مصاريف الغزو •

خطبت اسبانيا من جهتها محالفة المغرب ضد الطامحين في عرش البرتغال بل وأعدت الى المغرب مدينة أصيلا في مقابل تخلي سلطان المغرب عن مساعدة هؤلاء الطامعين في الملك •

وقصد تلافى الخطر التركي توجهت سفارة مغربية الى الاستانة ونجحت في اقرار علائق حسن الجوار • وبفضل استقرار هذا السلام تمكن المنصور السعدي من فتح السودان ثم نشر في المغرب بنود الازدهار وأقام في مدينة مراكش قصر البديع الجامع بين السعة والروعة وقد جلب السلطان المرمر من ايطاليا وأدى ثمنه وزنا يوزن بسكر سوس وقد اشتهر المنصور كذلك بجيشه العتيذ الذي نظمه على غرار الجيش التركي •

وقد أعجب الامراء المسيحيين بهذا العاهل العظيم ، وبدأوا يعتبرون الايالة الشريفة كدولة يجب أن يحسب لها حسابها ، ويرسلون سفنهم لمراسيها ، كما يبعثون بسفرائهم لمراكش ويحاولون الحصول على قروض من هذا الملك الثرى الذى كان يلقب بالذهبي ، وفي عهد المنصور هذا عاش المغرب فى طمأنينة ورفاهية ومجد •

أما فى تاريخ الفن الاسلامى فان عصر السعديين يعتبر عصر نهضة حقبة ، وانبعثت الزخرفية المصارية •

\*\*\*\*\*

### العلويون

وفى القرنين السابع والثامن عشر عاش المغرب فترة هادئة نسبيا لان الدول

الأوربية كانت قد انصرفت اذ ذاك في مجموعها الى الحروب التي شبت في أوروبا بسبب الحملة الاصلاحية الدينية وكذلك حروب الثورة وقد ساعدت هذه الحالة على اقرار وحدة البلاد السياسية من جديد على يد الملوك العلويين الذين ما زالوا يتربعون أريكة العرش المغربي الى اليوم والسلطان المولى اسماعيل هو الذي وطد دعائم هذه الدولة ، فقد كان الى جانب نشاطه العمراني تقيا متبصرا ، وكانت تذكاه عزيمة لا تفل ، وشجاعة كبرى ، ومناعة جسمانية احتفظ بها خلال عهده الطويل حيث استمر جالسا على العرش أزيد من خمس وخمسين عاما .

وعند ما تولى المولى اسماعيل الملك كانت بعض الموانئ المغربية في قبضة الاوربيين فألف لمواجهة هذه الحالة قوة عسكرية مهمة تتركب من العبيد الذين يؤدون الخدمة العسكرية على الدوام ، والاستمرار في مقابل أراض ومنافع حولها الامير اياهم ، وقد بنى ستة وسبعين معقلا شحنها بالحاميات ، وذلك في جميع النقط الاستراتيجية في مملكته للاشراف على الطرق والمرات كما يجب ، وقد نهج المولى اسماعيل سياسة وطنية بفضل هذا الجهاز العسكري ، وحارب بكل قوة الاجانب المحتلين للسواحل ، وانتزع طنجة من يد الانجليز ، كما جرد الاسبان من غالب ما كانوا يمتلكونه .

وفي أوائل القرن السابع عشر بلغ المولى اسماعيل ذروة القوة والمجد ، وقد أسس مدينة مكناس بأبوابها الاثرية وقصورها الخمسين وجعل منها عاصمة مملكته .

كان ملكا عظيما وكان يأبى الا أن يعامل بما هو جدير بهذه العظمة ، وقد كتب الى ملك فرنسا لويس الرابع عشر ، الذي كانت معاملته اياه خالية من أبسط أساليب الرعاية واللياقة ، ليطلب منه أن يوجه اليه «سفراء وسراة من طبقة أعلى من طبقة التجار العاديين ، وقد أوفد هو الى لويس الرابع عشر سفيرا في شخص أحد كبار سراة المغرب ، ويقال ان هذا السفير خطب لسيدة أميرة كوتني وقد علق كاتب فرنسي على هذه الخطبة بقوله : « لقد تندر الناس كثيرا في فرنسا بهذه الخطبة ، ولكن ربما كانوا مخطئين ، فقد كان الفرنسيون يجهلون اذ ذاك كل شيء عن الحضارة العربية ، وكانوا يتصورون البلاط المغربي بدون شك على غير ما كان عليه ، ومع ذلك فليس من المحقق أن المقاطعات الفرنسية كانت

كلها في ذلك العهد أكثر حضارة ومدنية من مملكة المولى اسماعيل .  
ويفضل القوة التي تفخها المولى اسماعيل في كيان المغرب أمكن لهذه البلاد أن  
تظهر بظهور الدولة فيما بعد بالرغم من الظروف العصية التي اجتازتها ، وقد  
كان أحد خلفه وهو سيدي محمد الثالث ، قائدا ذا عزيمة ، ودبلوماسية رقيقة ،  
وإداريا ماهرا ، وأماز بسهره على نشر الثقافة والعلوم ، وبما بذله من جهود  
لإدخال الإصلاحات إلى مملكته ، وقد جدد تسليح البلاد ، وأقام المعامل ، وأعاد  
الامن إلى تصابه ، وارتبط بعلاقات تجارية مع جميع دول أوروبا ، وأسس مدينة  
الصويرة ، وكون من أجل تعميرها حركة بحرية يجعل هذه المدينة ميناء حرا ،  
وهذا المعامل هو أول من اقترح على دول أوروبا إلغاء الاسترقاق ، وفي عهده  
أمضت مع فرنسا عام ١٧٦٧ أول معاهدة حول الحماية والمحاكم القنصلية .  
وقبل وفاته طرد البرتغاليين نهائيا من مدينة الجديدة وخلف وراءه المغرب  
آمنا وديعا .

فتاريخ المغرب منذ وفاة هذا الملك وخلال القرن التاسع عشر عبارة عن عراك  
عنيف في الميدان الدبلوماسي للمحافظة على استقلال المغرب ووحدة ترابه .  
وبقدر ما كانت المطامع الأوروبية تزداد الحاحا كانت المقاومة المغربية تشتد كما  
سيبين ذلك في الملحة الدبلوماسية .

# مساهمة العبقريّة المغربيّة

## في الحضارة الانسانية

ان الحضارة المغربية حضارة اسلامية ذات طابع شرقي واضح . وقد كان تأثير الشرق العربي على المغرب من العمق بحيث أن العرب والبربر منذ القدم ، كانوا معا - على حد تعبير سيديو - تذكيمهم عواطف واحدة ومبادئ واحدة ، وهيام مشترك بالحرية والمجد . وقد ساعدت روح الكرم ، ووحدة طرق المعيشة ، على التقريب بين العنصرين اللذين لا يشكلان من الناحية الاتوغرافية والتاريخية سوى عنصر واحد ، في رأي أغلبية المؤرخين من العرب . واذا كان المغرب قد نبذ الحضارة الرومانية ، كما يقول ألفريد بيل ، فذلك لانعدام هذا المبدأ الاساسي اللازم لكل التحام . ولذلك قال مسيو بيلير « عند ما حمل عقبة الاسلام الى المغرب لأول مرة سنة ٦٨٠ رأى المغاربة فيه خلاصا لهم ، وسارعوا الى اعتناقه » .

فأخذ المغرب ، منذ ذلك الوقت ، يتطور في دائرة النفوذ الشرقي ، ولبت ، طيلة ثلاثة عشر قرنا ، يربط مصيره بمصير الشرق العربي . وقد عرفت الدولة المغربية ، أثناء هذه المدة كلها ، ما سماه اندريه جوليان بـ « الاستمرار » . ولا حاجة مطلقا الى القول هنا بأن هذا الاستمرار يشكل في نفسه معجزة في عالم تسيطر عليه روح القرون الوسطى المعاندة . فقد احتل الاتراك والبرمانديون والاسبان تونس والجزائر ، على حدود المغرب نفسها ، بينما بقي المغرب محتفظا بسيادته الكاملة زهاء الف سنة .

ومن جهة أخرى فان المغرب قام بدور مهم في تعمير أسبانيا بمجرد ما فتحها العرب . ولذا فان تاريخ العلائق المغربية الاسبانية يبدأ منذ فجر الاسلام اذ امتزج العنصران وتمخضا عن مدينة كونت بطابعها الخاص فصلا من ألمع فصول التاريخ الفكري في القرون الوسطى . صحيح أن المغرب ، كجميع البلاد ، عرف فترات اضطراب في تاريخه ،

ومر بأزمات حادة في بعض الأحيان ، ولكنه مع ذلك قد استطاع أن يحافظ على استقلاله ، ويرفع من قيمته الدولية ، واستطاع كذلك أن يساهم مساهمة واسعة ناجحة في ازدهار الحضارة الإنسانية .

ويشهد مستوى المعيشة المغربية ، من خلال التاريخ ، على أن الدولة المغربية كانت على الدوام تهتم بالحضارة وال عمران فظهر أعمالها في شكل مؤسسات اجتماعية واقتصادية وثقافية مختلفة . بل كانت الطبقة المتوسطة من المغاربة تنعم بشيء من اليسر ، يفسر لنا الأزدادياد المستمر في عدد السكان ، وهو أمر ظالما أنكره البعض ، ولكن مؤرخين أوروبيين كبارا يؤكدونه . ومن هؤلاء دو فنتان ماكسانج الذي نقل رسالة تحدثت عن مملكتي فاس ومراكش ، وفيهما من المدن الجميلة مائتان وخمسون مدينة ، في كل واحدة منها على الأقل نحو ٣٠ ألفا من السكان . وقد كانت فاس وحدها تحتوى على مليون وستمائة ألف نسمة .

وهذه الأرقام التي قد تظهر مبالغاً فيها، قد أكدها نسيبياً تقرير الرحالة الانجليزي ، الذي نقله دو كاستر ، والذي يقدر سكان فاس بنحو مليون نسمة قبل ذلك بثلاثمائة سنة .

أما دوسانت أولون ، سفير ملك فرنسا الى المغرب ، فقد قدر ، في مذكراته ، سكان مدينة مكناس التي يصفها بأنها مدينة صغيرة ، بما يربو على الستين ألف نسمة . وقدر الأستاذ ماسينيون سكان البوادي المغربية ، نقلا عن الوزان الفاسي ، بنحو السبعة ملايين . كما ذكر مؤرخ جزائري ، عاش في القرن الماضي بأن مجموع سكان المغرب يقدر باثني عشر مليوناً .

ولكن يبدو أن سكان المغرب قد قل عددهم نسبياً على أثر الطاعون الذي انتشر في البلاد سنة ١٦٧٩ ، والذي اجتاح أوروبا وفرنسا بالخصوص ، وذلك رغماً من العناية الطبية والاجتماعية التي أعدها عملاء المولى اسماعيل على الشعب المنكوب ، فقد كانت الممارسات منبئة في الجهات المختلفة .

أما عن مستوى المعيشة فقد كانت الرفاهية الاقتصادية كبيرة لدرجة أن مواد الاستهلاك الأساسية لم تكن لها أية قيمة . ولم تكن مفروضة على الناس أتاوة عدا الزكاة . وقد كان ملوك المرينيين يزودون سكان البادية المغربية بما يحتاجون اليه للقيام بأشغالهم الفلاحية . وفي عهد المولى اسماعيل ، عم الأمن

جميع البلاد ، وكان المسافر يذهب من وجدة الى حدود الصحراء بدون احتياج الى حراسة ، ذلك لان نظاما بديعا يقوم على تبادل المعونة بين السواحى ، كان يمنع المجرمين أن ينفلتوا من قبضة العدالة .

ويبدو أن اليسر كان عاما لدرجة أن المغاربة ، تحت تأثير عاطفة انسانية مجردة ، قد ابتكروا فكرة اشادة مؤسسات حسية - أوقاف - لمعالجة الحيوانات المصابة ، واطعام الطيور فى السنوات العجاف .

وتفوق المؤسسات الاجتماعية الشعبية كل عد ، كما تشهد بذلك وثائق ادارة الاوقاف . وقد نظمت الطبقة البورجوازية فى فاس مصارف تعاونية للقروض بدون مقابل ، فساعدت بذلك على النمو الاقتصادى والاجتماعى فى البلاد .

أما فيما يرجع الى الناحية الاقتصادية ، فقد كانت بعض الصنائع مزدهرة ، وكانت فاس وحدها ، على عهد الموحدين ، تعد أكثر من اثنى عشر مصهرة للحديد والنحاس ، وأحد عشر معملا لصنع الزجاج ، ومائة وثلاثين فرنا للجير ، ومعامل عديدة لصنع الصابون ، وعددا كبيرا من معاصر الزيت ومن المطاحن ، وما يربو عن أربعمئة معمل للورق . وكانت صناعة الورق قد استوردها المغرب من الشرق ، ثم انتقلت منه الى أسبانيا فى أواسط القرن الثانى عشر الميلادى . ومع ذلك فإن التقدم الصناعى كان لا شىء بالنسبة الى التقدم الفلاحى . لان النظام الفلاحى هو الذى كان يطبع دائما الاقتصاد المغربى بطابعه العميق . وكان معظم سكان البلاد دائما يتكون من عنصر الفلاحين .

وقد كان المغرب يجد دائما الكفاية فى إنتاجه ، بل كان يصدر الفاضل من هذا الإنتاج الى الخارج . فكانت مصدراته تتكون من محصوله الفلاحى كالتمر والحنا ، ومن المعادن المختلفة كملح البارود والنحاس . الخ .

وفى القرن الثالث عشر ، كانت الفلاندر ، وجمهورية البندقية وبيس ، تستصدر السكر الخام من المغرب . وكانت صناعته قد ازدهرت ازدهارا كبيرا على عهد السعديين .

أما الملح فكانت مدينتا الرباط وسلا تتحان منه وحدهما ما يكفى - حسب تقدير انجليزى ذكره دو كاستر - لسد حاجيات انجلترا كلها .

وتدل الاحصائيات التى ذكرها بعض السياح الاجانب القلائل الذين زاروا

المغرب منذ أكثر من قرن ، على أن عدد الماشية بالمغرب يرتفع الى ثمانية وأربعين مليون رأس من الغنم ، ومن البقر ما بين ٥ و ٦ ملايين ، ومن الجمال نحو خمسمائة ألف . ومن الأفراس أربعمائة ألف . ومن الحمير والبغال نحو المليونين .

أما ما يرجع الى التبادل التجارى مع الخارج ، منذ العصر الموحدى ، فان المسلمين الذين هم أول من نظموا - كما قال أندريه جوليان - أساليب التجارة ، ولاءموا بينها وبين مقتضيات التبادل الدولى ، قد علا كعبهم فى ذلك ، واقتبس منهم المسيحيون .

وفى الناحية الصناعية والمعمارية ، كانت الآلات جارية الاستعمال فى المغرب . وبذلك أمكن للموحدين أن يبنا القناطر ، ويصنعوا منبرا فى مراكش يتحرك من تلقاء نفسه بصفة آلية وبمجرد الضغط على زر مركب فيه . وهناك آلات عجيبة أخرى كانت تستعمل فى رفع المياه ، وفى نقل مواد البناء الضخمة ، كما كان ذلك عند بناء منار الكنية ومثناة حسان .

وفى بداية حكم الموحدين أخرجت الورش البحرية المغربية أربعمائة سفينة حربية . وكان أسطول الخليفة الموحدى - كما قال أندريه جوليان فى كتابه ( تاريخ أفريقيا الشمالية ) ص ٤١٢ - أول أسطول فى البحر المتوسط . وأضاف جوليان قائلا « لذلك طلب منه صلاح الدين فى سنة ١١٩٠ أن يمد اليه يد المساعدة لايقاف زحف الملوك المسيحيين على الشام » .

وقد كانت قوة الامبراطورية الموحدية ، وسعة ثروتها ، وسطوة جيشها وأسطولها - كما يقول جوليان - مصدر سمعة هائلة لها .

وجاء المرينيون بعد الموحدين فرفعوا قوة المغرب البحرية الى أوجها . اذ انتجت الورش المغربية تحت حكم السلطان أبى الحسن المرينى ستمائة سفينة حربية ، مما جعل السلطان أبا الحسن - كما يقول جوليان - أقوى سلطان على الاطلاق فى القرن الرابع عشر .

وفى ميدان الصحة العامة ، فتح الموحدون مستشفيات فى جميع أطراف امبراطوريتهم الشاسعة . وأشهر هذه المستشفيات مستشفى مراكش الذى وصفه

المؤرخ المغربي عبد الواحد المراكشي وصفا يشهد بالدرجة الشامخة التي بلغتها الحضارة المغربية في القرن الثاني عشر .

وفي الميدان الثقافي ، كانت فاس ، برهة طويلة من الزمن ، منبعاً يشع نوره على العالم الغربي . وقد جعلت منها جامعتها الشهيرة عاصمة ثقافية يحج إليها الطلاب ، لا من شمال أفريقيا ومصر فحسب ، بل ومن أطراف أوروبا . ولا نذكر هنا إلا البابا سيلفيستر الذي درس في القرويين ، الأرقام العربية ، ثم أدخلها للمرة الأولى إلى أوروبا . وإن قبول طالب مسيحي في جامعة إسلامية ليعطينا فكرة عن روح التسامح التي كانت تذكى قلوب المغاربة ، وقد أصبحت اللغة العربية على ضفاف البحر الأبيض المتوسط - وقد كان بحيرة لاتينية من قبل - هي اللغة التجارية والعلمية . بل هناك رهبان كاثوليكيون ، في الأندلس المغربية ، هجروا اللاتينية ، وهي اللغة الدينية عند المسيحيين الغربيين ، وأخذوا يكتبون بالعربية .

وكان عدد من الأطباء العرب واليهود يقطنون في ساليرنو بإيطاليا وفي مونبوليه بفرنسا . وقد نزحوا اليهما من أسبانيا المغربية ، وأسسوا في كليهما مدارس طيبة لعبت دوراً كبيراً فيما بعد في تاريخ الحضارة ، عند انتقال المركز الحيوي للثقافة من الشرق إلى الغرب .

أما عن الفن - فقد ذكر اندريه جوليان - أن نظرية الموسيقى ، والمراتب ، والألحان قد أتت من الشرق حيث تكونت ، إلى أسبانيا حيث بقيت خالصة لم يساورها تغيير . . . بينما الهندسة المعمارية المغربية تؤلف - كما قال جسيل - طرفةً بديعةً من الاتقان والانسجام . فالآثار الفنية ، من المنار الكبرى بمراكش إلى الحيرالدا بأشبيلية ، تحمل طابع الجلال واللطافة . وإن الذوق الفني يظهر في كل مكان في الحياة المغربية حتى في الحداثق الغناء ذات الاطراف المزدهرة بالألوان الفاتنة التي جعلت رحالة هولنديا - كما قال دو كاستر - يلاحظ أن حداثق مدينة مراكش أجمل حداثق القارة الأفريقية على الإطلاق ، وقد تأثر الشرق نفسه بالفن المغربي فأحدث محمد بن عبد الكريم ، وهو من مدينة فاس ثورة حقيقية في فن الهندسة المعمارية ، عند ذهابه لمصر في القرن الثاني عشر الهجري . وما تزال طرائفه الفنية في متحف القاهرة إلى اليوم .

وتنافس مدن المغرب ، أبهة ولطفاً ، مع عواصم الشرق الكبرى . ولم يكن

الناس عابثين عند ما قارنوا الرباط بالاسكندرية ، وفاسا بدمشق ، ومراكش  
ببغداد . . .

والحق أن تأثير الحضارة المغربية قد تجاوز بلاد أفريقيا الشمالية الى بلاد  
البحر المتوسط وشبه الجزيرة الأيبيرية .

وقد دامت سلطة ملوك المغرب ، على كامل الغرب الاسلامي ، طيلة ثلاثة  
قرون ، وأول ملوك الموحدين الذي طرد الترمانيين من الشاطي ، الأفريقي ،  
كانت سياسته تدل على بعد نظره في الفنون الاستراتيجية ، عند ما شعر بأهمية  
جبل طارق ، وجعل منه قبل الانجليز ستة قرون ، قاعدة عسكرية متقدمة  
للدفاع عن الاندلس وحوض البحر المتوسط .

ومن جهة أخرى ، فالحضارة الاندلسية نفسها - كما قال أندريه جوليان -  
اصطبغت بصبغة مغربية ، ازدادت لمعانا وقوة عند ما ذهب الموحدون لمساعدة  
السلطة القائمة في الاندلس . فقد وضعوا حدا للفوضى المالية التي كان ينشرها  
ملوك الطوائف هناك ، ودفعوا بالفلاحة في طريق الازدهار . . . الخ .

وكم من شخصيات مغربية ما تزال مشهورة في الميدانين العلمي والأدبي ،  
ولن نذكر من هذه الشخصيات هنا الا الشريف الادريسي الذي هو من مدينة  
سبتة ، والذي كان يشتغل في بلاط روجيه الثاني ملك صقلية ( ١١٥٤ ) .  
ويعتبر - كما قال غوتيه - أستاذ أوروبا في الجغرافية مدة ثلاثة قرون لم تكن  
أوروبا خلالها تملك خريطة أخرى غير خريطة الادريسي . وابن خلدون واضع  
علم الاجتماع ، وقواعد نقد التاريخ ، والسابق الاول للفلسفة المادية التاريخية  
على حد تعبير بوتول . وابن رشد الذي حلل وفسر في كلياته آلية الدورة  
الدموية عند الانسان ، وذلك قبل وليم هارفي بكثير ، وابن زهر ، طبيب البلاط  
الموحدي الذي اكتشف الجراثيم الطفيلية ، قبل باستور بثمانية قرون ، وبالاخص  
جراثيم الجرب . وابن البنا الرياضي الشهير الذي كان يدرس في القرن الثالث  
عشر ، وقد ألف رسالة منهاجية في الجبر ، وسماها ( التلخيص ) قال فيها : ان  
الغرض منها هو العثور على كمية مجهولة مطلوبة باستعمال كميات معروفة اذا  
ما ثبت بين الكميات نسبة معينة .

وللمغرب رجالون ذوو شهرة عالمية كابن بطوطة من طنجة ، وابن الوزان  
من فاس ، ويعرف بليون الأفريقي .

أما في الأدب ، فالقرآن كان يعتبر في الأندلس أفقه علماء اللغة ، وكان له التبريز في ذلك على جميع زملائه في الشرق مثل ( صاعد ) البغدادي . وقد اقتبس الشاعر الإيطالي دانتى مهزله الإلهية ، في نظر أسين بالاسيوس من ابن العربي الصوفي . وكذلك اليهودي الهولندي سينيوزا كان متأثرا به في فلسفته الصوفية التي لها شبه بالفلسفة العربية .

وفي هذا العهد الذي كانت فيه أوروبا لم تخرج بعد من مرحلة الطلاسم في ميدان الطب ، كانت الأندلس ، تحت مؤثرات مغربية ، تعد في مدينة طليطلة وحدها أربعمئة مستشفى ومستوصف ، كما قال الأمريكي روبنسن . وكانت تمارس الأساليب التجريبية التي لم تعرفها أوروبا إلا بعد ذلك بقرون على يد الانجليزي باكون

وبالجملة ، ففي كل مكان في العالم الإسلامي نجد الأدباء والفقهاء المغاربة قد تركوا آثارا لهم . فمحمد الروداني ، من مدينة مراکش شاهد تآليفه في الرياضة والفقهاء تبلغ إلى الهند ، بعد أن أدهشت العلماء بما تحوى عليه من سعة اطلاع . والحرالي أدهش أدباء تونس بمشاركته وتبحره في العلوم . والمقرئ سجل نجاحا باهرا في مسجد بنى أمية بدمشق . وابن خلدون عين قاضيا في القاهرة . والصوفي الأكبر الشاذلي أصبح رئيسا روحيا لأغلب الزوايا في العالم .

وقد أكد المؤرخ الانجليزي لين بول أن المدينة المغربية العربية بعثت اشعاعا ثقافيا وازدهارا اقتصاديا وانسانية وبطولة في أسبانيا تحت الحكم الاسلامي . فلما رجعت إلى المسيحية انتشرت فيها الفاقة واللصوصية . ولقد تقهقر عدد سكان أسبانيا بعد عهد الازدهار الاسلامي حتى غدوا لايتجاوزون ٦ ملايين بعد مرور مائة سنة فحسب على انهيار آخر مملكة اسلامية بالأندلس ، بينما كان عدد سكان قشتالة وحدها ، في زمن بنى عباد ، يتجاوز سبعة ملايين نسمة .

أما التأثير المغربي على البرتغال فقد وصل إلى درجة أن اللغة التي كان يكتب بها البرتغاليون - كما ذكر ذلك كواسلك - كانت ممتلئة بالكلمات الأهلية ومحرومة بالخط العربي .

ويبدو هذا التأثير أيضا فيما وراء جبال البرانس إلى مقاطعة البروفانس حيث ماتزال هناك ذكريات قائمة الذات . وكذلك الشأن في جنوب إيطاليا ،

وفى صقلية ، حيث أشاد الصناع المغاربة خزانات مائة عظمى كما ذكر ذلك الأدريسى •

أما أهمية العلاقات التي كانت قائمة بين المغرب وبقية الاقطار الاوربية الاخرى كهولندا ، وانجلترا ، والدانمارك ، والسويد ، فتبدو واضحة من خلال المستندات والوثائق التي جمعها الكونت دو كاستر من وزارات خارجية البلاد الاجنبية ، وجعلها في ٢٠ مجلدا تحت عنوان ( المصادر المخطوطة للتاريخ المغربى ) •

ومن هذه العلاقات أن هولندا - وكانت اذ ذاك تعرف بالمقاطعات المتحدة - كانت طلبت قرضا من الحزينة المغربية ، على عهد السعديين ، يقدر بمليون ونصف مليون دينار ( ٣٢٥٠٠٠٠٠٠٠ فرنك ذهبى ) • كما طلب نابليون بونابرت ، الذى كان يقدر قيمة المغرب الاستراتيجية وبأس منكه ، من المولى سليمان أن يتضم الى الكتلة الاوربية ضد انجلترا • وقد أصبح المغرب عاملا مهما فى التوازن بين القوات الغربية ، فكان البلاط السعدى شديد الاهتمام بالتيارات السياسية المختلفة فى بلاد أوروبا ، الى درجة أنه حاول أن يعزز مطامع أنطونيو فى عرش البرتغال ، فزوده بقرض قدره ٤٠٠ ألف ريال •

ان المكان الاول الذى كان يتبوؤه المغرب فى العالم الاسلامى كله ، ليظهر من خلال الدور الذى قام به فى مختلف مراحل التاريخ • وان النداء الذى أرسله صلاح الدين الى الخليفة الموحدى « المنصور » ليدل على الاقل - كما قال أندريه جوليان - على أنه كان يعتبر الملك المغربى أقدر واحد على الدفاع على الاسلام المهدد • وقد رأينا أبا عنان المرينى بعد ذلك يساهم فى تحرير طرابلس بتقديم هدية مالية قيمتها ٥٠ الف دينار • كما رأينا السلطان العلوى سيدى محمد بن عبد الله يفتدى ٤٨ ألف أسير من المسلمين كان معظمهم من الاتراك • كما أن مولاي سليمان أرسل الى ملك آل عثمان ، استجابة لنداء استغاثة أرسله الملك العثمانى اليه ، أربع صنادق ضخام من سبائك الذهب يحملها وقد خاص اليه • كما حاول فى الوقت نفسه أن يغيث تونس التى كانت تتحكم فيها مسغبة من أثر الجفاف •

وقد بلغ التضامن بين ملوك المغرب وملوك الشرق الى درجة أن المولى اسماعيل

حاصر جبل طارق لمنع أعداء تركيا من المرور لاسطامبول . ثم بعد ذلك رفض السلطان سيدى محمد بن عبد الله أن يقابل سفير روسيا فى طنجة ، لان روسيا كانت فى حرب مع الاتراك .

وقد كانت علاقات المغرب بتركيا علاقات مشبعة بروح الود الخالص ، ولا سيما فى عصر السعديين . وقد أمضى المنصور الذهبى ، فاتح السودان الشهير ، وقاهر البرتغاليين فى معركة المخازن ، زهرة شبابه فى مدينة اسطامبول . كما عاش أخوه الاكبر عبد الملك ، فى تركيا ، حقبة من الزمن ، ومات فى معركة المخازن . وكان يتكلم بالاسبانية ويكتب بها - كما قال كواسك - ويكتب أيضا بالاطالية والتركية . . أليس فى هذا تكذيب قاطع لأولئك الذين يزعمون أن المغرب منعزل بطبعه ، غير قابل للتأثر بالمدينة الغربية لضيق عطنه .

وهذا الملك المستنير يعطينا كذلك برهانا على تسامحه الواسع ، ومثاليته الانسانية السامية ، عند ما أمر ببناء مستشفى قرب أحد المساجد بمراكش لمعالجة الاسرى المسيحيين ، كما ذكر ذلك الانجليزى ادمون هوجار .

وبعد هذه المدة رأينا مولاي اسماعيل يهتم شديد الاهتمام بالتطورات السياسية فى أوروبا ، الى درجة أنه وظف مستشارا خاصا له فى هذا الموضوع ، هو الامير مولاي العربى ، الذى سبق له أن عاش مدة طويلة فى أوروبا . كما رأينا سفير فرنسا يندهش لصراحة المولى اسماعيل ومعرفته الدقيقة بانتصارات لويس الرابع عشر وانهزاماته فى الحروب الاوربية .

أما السلطان مولاي الحسن فقد كان شديد الاهتمام بتطور بلاده على نسق أوروبا . فأرسل بعثات من الشباب المغربى ليتعلموا فى مختلف جامعات أوروبا ، وليتكونوا تكوينا فنيا عصريا . بينما المولى عبد العزيز لم يتأخر من جهته عن جلب الفنين الاوربيين لتنظيم الجيش المغربى ومصالح المالية .

وفى سنة ١٩٠٨ ، فقط ، أمر المولى عبد الحفيظ - وكان له ولع شديد بالحياة النيابية فى أوروبا وتركيا - النخبة المغربية بتحضير دستور ديمقراطى للبلاد ، وقد نشرت هذا الدستور جريدة عربية كانت تصدر فى طنجة اذ ذاك . غير أن الدساتير الاوربية التى أدت فى الاخير الى فرض الحماية على المغرب ، لم تكن تسمح بموالاته المساعى لتطوير البلاد فى جو ملائم .

قال لييرى نقلا عن جوستاف لوبون : « لو لم يكن العرب في التاريخ لتأخرت  
نهضة الآداب بأوروبا عدة قرون » .

وقد كان معظم هؤلاء العرب الذين يعينهم بقوله مغاربة أثروا بواسطة الاندلس  
على المدينة الغربية .

وهكذا فإن المدينة المغربية قد ساهمت بالنصيب الاوفر في تلك الحركة  
الفكرية الرائعة التي حررت الانسانية من الحرافات . ولئن تضافرت الجهود  
لفتح الطريق الحق للتقدم البشري في فجر العصر الحاضر ، فان الفضل في تلك  
الجهود يرجع معظمه الى الحضارة الاسلامية في المغرب .



# نظرة دبلوماسية عن المغرب

أهم ما عنت به الدبلوماسية المغربية دائما منذ تأسست هذه المملكة هو حفظ استقلال المغرب والارتباط بعلائق طيبة مع الدول المجاورة . وهذا ما يفسر لنا نزعة المغرب القارة الى الاحتفاظ بحريته ازاء امبراطورية الشرق الاسلامية . ولم يظهر المغرب على المسرح الدولي الا ابتداء من منتصف القرن الحادى عشر الميلادى بعد ما توطدت حدوده الجغرافية الطبيعية .

وفى المدة المتراوحة بين القرن الحادى عشر والقرن الثالث عشر بلغ المغرب على عهد المرابطين والموحدين أوج عظمته ومجده ، فصارت حدوده تمتد الى تخوم ليبيا وتخضع له الجزيرة الايبيرية المسلمة ( أى كل من أسبانيا والبرتغال ) غير أن المغرب اضطر الى التراجع نحو حدوده فى نهاية القرن الخامس عشر عند ما أصبح مهددا شمالا بالغزو الاسبانى ( كان سقوط غرناطة فى عام ١٤٩٢ ) وشرقا بالغارة التركية .

وطوال القرن السادس عشر عملت الدبلوماسية المغربية على ايقاف الحملة التركية وتفريق كتلة الملوك المسيحيين ، وبفضل انتصار الدولة السعدية الباهر فى معركة وادى المخازن على الجيش البرتغالى عام ١٥٧٨ تمكن المغرب من توطيد السلام لا فى حدوده فحسب ، بل كذلك من التوسع فى الجنوب توسعا انتهى به الى احتلال السودان بتاريخ ١٩ مارس سنة ١٥٩١ .

## المملكة المغربية فى القرنين السابع والثامن عشر

عاش المغرب خلال القرنين السابع والثامن عشر فى هدوء نسبي لان الامم الاوربية كانت منغمرة فى حروب الاصلاح الدينى والثورة بأوربا .

وفى عهد المولى اسماعيل جرت مفاوضات بين البلاط المغربى ولويس الرابع عشر ملك فرنسا من أجل ابرام حلف بين البلدين . غير أن الاتفاق لم يحصل سواء على يد السفارة الفرنسية التى استقبلت عام ١٦٨٩ فى القصر السلطانى بمكناس أم على يد السفارة المغربية التى كان يرأسها ابن عائشة والتى توجهت

عام ١٦٩٨ الى قصر فرساي وكان سبب الاخفاق يرجع الى أن مولاي اسماعيل كان يرغب في عقد تحالف عسكري ضد أسبانيا المستقرة اذ ذاك في سببة ، بينما كان لويس الرابع عشر يرغب في مساعدة التجارة الفرنسية من وراء هذا الحلف ممتنعا عن القيام ببذل أية مساعدة للمغرب ضد أمة كاثوليكية .

وأهم المعاهدات الدبلوماسية التي أبرمت طيلة هذه المدة مع الدول الاجنبية لا تخرج عن كونها اما معاهدات صداقة وتجارة ، واما اتفاقيات لتسوية المشاكل الناجمة :

- ١ - عن القرصنة الدولية التي كانت تعمل في المحيط الاطلسي وغربي البحر الابيض المتوسط .
- ٢ - وعن مسألة التمثيل الدبلوماسي واستقرار الرعايا الاجانب بالمغرب .
- ٣ - وعن افتكك الاسرى .

غير أن هناك معاهدين أبرمتا مع أسبانيا بتاريخ ٣٠ مايو ١٧٨٠ وفتح مارس ١٧٩٩ تستحقان الذكر بصورة خاصة ، ففي المعاهدة الاولى تواعدت المملكة المغربية والمملكة الاسبانية بتبادل الاعانة والمساندة ضد أعداء كل واحد منهما ، وفي المعاهدة الثانية وعدت كل واحدة الاخرى بملازمة الحياد التام فيما اذا قامت حرب بين أحد الطرفين ودولة ثالثة .

ونذكر هنا على سبيل الافادة أهم المعاهدات المبرمة مع الدول الاجنبية في القرنين السابع والثامن عشر فقد أبرم المغرب مع انجلترا معاهدين : الاولى سنة ١٦٣٠ والثانية سنة ١٧٦٠

ومع الدنمارك معاهدة ١٧٥٧

- ومع أسبانيا معاهدات ١٧٦٧ و ١٧٨٠ و ١٧٩٩
- ومع الولايات المتحدة الامريكية معاهدة ١٧٨٧ .
- ومع فرنسا معاهدات ١٦٣١ و ١٦٨٢ و ١٧٦٧
- ومع هولندا معاهدات ١٦١٠ و ١٦٥١ و ١٦٨٣
- ومع ايطاليا معاهدي ١٧٦٢ و ١٧٦٥
- ومع البرتغال معاهدي ١٧٧٢ و ١٧٩٩
- ومع السويد معاهدة ١٧٦٣ .

ويجب الاعتراف بأن الدبلوماسية المغربية قد برهنت في مفاوضاتها مع أوروبا عن روح جامعة بين حب السلام والتسامح الى أقصى حد فزيادة على ما حصلت عليه دول أوروبا لرعاياها في المغرب من فوائد في الميدانين التجارى والدينى ، حصلت لهم كذلك على امتيازات دبلوماسية بمدة اقامتهم بالمغرب رغم كون القانون الدولى العام لا يخول هذا النوع من الامتيازات الا للموظفين بالسفارات وخدمهم .

وقد أمكن للمغرب بعد ذلك أن يدرك ما ارتكبه من أخطاء في دبلوماسيته ، وكان عليه فيما بعد أن يؤدي غالبا ثمن حسن نيته ونزغته الحرة لانه لم يحاول أن يفهم عقلية أنداده من الدول ، ولانه أهمل على الخصوص المثل القائل : « اعطه بقدر ما يعطيك » ، ذلك المثل الذى كان رجال الدول الاوربية يجعلون منه قاعدة لسلوكهم .

### المغرب فى القرن التاسع عشر

تعرضت وحدة التراب المغربى فى القرن التاسع عشر لمحنة قاسية ، ذلك أن مؤتمرى فيينا سنة ١٨١٥ وايكس لاشييل سنة ١٨١٨ الذين تقرر فيهما إعادة تنظيم أوروبا وجلاء جيوش الاحتلال من فرنسا ، ثم أقول نجم الدولة العثمانية كل ذلك تمخض عنه انطلاق القوات الاوربية من عقالها ، والزج بها فى مغامرات استعمارية فوقعت اذ ذاك مسابقة حقيقية بين تلك القوات نحو بقية الأقطار ، ولما تم توزيع أفريقيا الوسطى كلها أصبحت أفريقيا الشمالية بدورها معرضة الى الخطر .

وكان أعظم خطر على المغرب هو احتلال فرنسا للجزائر عام ١٨٣٠ ، فان المغرب اضطر لأجل ايقاف مطامع الاعداء الى محاربة فرنسا ( ١٨٤٤-١٨٤٥ ) ، وأسبانيا ١٨٦٠ على التوالي واذا لم تكن هزائم المغرب قد أسفرت عن عواقب وخيمة فان بعض ذلك يرجع الى تدخل انجلترا الدبلوماسى .

وقد نسيت معظم الامم الكاثوليكية ، ولا سيما منها أمم جنوب أوروبا التى كانت لا تزال تحت تأثير الروح الصليبية الانتقامية - الاستعدادات الطيبة التى سبق أن أبدتها نحوها ملوك المغرب فى القرون الماضية ، فلم تكن هذه الدول تحترم

مقتضيات معاهداتها مع المغرب الا ما دام المغرب قويا ، لذلك رأيناها تفتتم فرصة هذه الانهزامات لتتكلم وتحاول التدخل فى شئون المغرب الداخلى مستندة فى ذلك الى ما خولها المغرب عن طيب خاطر من امتيازات دينية ودبلوماسية ، فكانت تلك الدول تستغل أدنى حادث لتقوم جميعها على وجه التقريب باحتجاج تصحبه أحيانا تهديدات بالتدخل العسكرى .

ويجب أن نعترف بأن المغرب استفاد من مساندة انجلترا له طيلة ثلاثة أرباع هذا القرن الى حدود ١٩٠٤ فقد وقفت انجلترا لغاية هذا التاريخ موقف المناهض عن كيان المغرب ووحدته الترابية ذلك أن انجلترا كانت دولة بحرية قابضة منذ ١٧٠٤ على زمام مضيق جبل طارق ، فلم تكن لتسمح بوقوع أى تغيير عميق فى توازن القوات القائمة ، لذلك كان نشاطها يهدف الى ابقاء ما كان على ماكان فى غرب البحر الابيض المتوسط ، ولا سيما بالشاطىء المغربى .

على أن الحكومة المغربية لم تبق مكتوفة الايدي ففى عهد المولى محمد بن عبد الرحمن تحررت الدبلوماسية المغربية تحريرا تاما فأصبحت طنجة عاصمة المغرب الدبلوماسية ، واستدعى الدبلوماسيون الاجانب الى الاقامة بهذه المدينة ، فأصبحوا يتصلون منذ ذلك بالحكومة المركزية عن طريق ممثلها بهذه المدينة ووزير خارجية السلطان بفاس ، وبذلك وقع حسم دسائس بعض القناصل داخل البلاد ، وانتهى أيضا عهد الاتفاقات الثنائية .

فقد فضلت الحكومة المغربية أن تسوى بتاريخ ٣١ مارس سنة ١٨٦٥ مع الهيئة الدبلوماسية التى تسهر من طنجة على مصالح الاوربيين بالمغرب قضية احداث منار فى المكان المعروف برأس سبرطل .

### عقد مدريد

كما سوت الحكومة المغربية مع الدول التى يهملها الامر مباشرة فى مؤتمر انعقد بمدريد عام ١٨٨٠ مشاكل الحماية الدبلوماسية التى كان أمرها قد استفحل اذ ذاك وكذلك المشاكل المتعلقة بحق ملكية الاجانب وتجنس الرعايا المغاربة بجنسية أجنبية وقد تقرر منذ ذلك العهد عدم تخويل أية حماية للرعايا المغاربة بصورة غير قانونية ولا رسمية ، وبذلك أصبح عدد المحميين لا يتجاوز الاثنى

عشر عن كل دولة ( المستخدمون التجاريون أو المحميون الاستثنائيون نظرا لما أدوه من خدمات ) لان هذه الحماية كان يترتب عنها بالاخص سحب الرعايا المغاربة من الخضوع لمحاكمهم الطبيعية وأخضاعهم لمحاكم قنصلية • الامر الذي يمس بالسيادة المغربية ، ويمكن القول بأن امضاء اتفاقية مدريد بتاريخ ثالث يوليو من طرف ممثلي ثلاث عشرة دولة - منها المغرب - كان ظفرا عظيما لدبلوماسية جلالة السلطان مولاي الحسن فقد حاولت فرنسا عبثا الحيلولة دون انعقاد المؤتمر لانها شعرت بأن من شأنه أن يززع مركزها ويعارض مظامحها في المغرب ، تلك المطامح التوسعية التي كانت تزداد ظهورا يوما فيوما ، والتي كان بيسمارك الالماني يشجعها قصد تحويل نظر الفرنسيين عن هزيمتهم الاخيرة عام ١٨٧٠ وعن فقدهم مقاطعتي الالزاس واللورين •

وبالجملته فان اتفاقية مدريد باعترافها « بمقام ممتاز » لكل واحدة من الدول الموقعة عليها قد أحبطت كل تدخل أجنبي في المغرب ، وحفظت للبلاد استقلالها ووحدتها الى أوائل القرن العشرين • .

نعم ، لقد خسرت فرنسا بذلك معركة المغرب الدبلوماسية ، غير أنها ربحت معركة تونس عام ١٨٨١ على أثر انعقاد مؤتمر برلين بتاريخ ١٨٧٨ لبحث المسألة الشرقية ، أي مسألة تقسيم الامبراطورية العثمانية •

### المغرب في بداية القرن العشرين ( ١٩٠٠ - ١٩١٢ )

وفي القرن العشرين تغلب نظام القوة ، واشتد تنافس الدول الاستعمارية في شأن المغرب ، فبلغ من الحدة ما لم يبلغه من قبل •

فان فرنسا التي كانت قد قبضت على زمام المقاطعتين التركيتين السابقتين ، تونس والجزائر قد صرفت جهودا للمغرب حيث صارت تثير للحكومة المغربية مصاعب خطيرة ، فكان دفع بوحمارة الى الثورة في المغرب الشرقي عام ١٩٠٣ أحسن مثال لذلك ، فهذه الثورة وليدة الدسائس التي قامت بها «نورتي أفريقيا» وهي جمعية كان على رأسها م ايتين وزير داخلية فرنسا اذ ذاك وكان من أعضائها م ماسني و م شنيدر وغيرهم •

ومن جهة أخرى شرعت الحكومة المغربية حوالي ١٩٠١ في نهج سياسة

اصلاحات مالية وادارية وعسكرية فلجأت من أجل ذلك الى معونة الاختصاصيين الاجانب ، ولكن فرنسا عملت على احباط هذه الاصلاحات التي أرادت هي أن تحتفظ بتوجيهها والاشراف عليها .

وقد كتب اذ ذاك سفير فرنسا بفاس الى حكومته قائلا : « ان أحسن سياسة هي احتلال وجدة واعلان فرنسا شروط انسحابها عنها سلفا ، وزيادة على ذلك فاني متيقن أن مساعي لدى دول أوروبا ستكون نافعة في اعلان كلمة فرنسا ، وتقوية نفوذها على المخزن » .

وهكذا فان الدبلوماسية الفرنسية ستحاول تسوية قضية المغرب خارج المغرب فتقوم بالمساعي والمساومات التي ستؤدي الى امضاء اتفاقات سرية مع الدول التي تضايقها في المغرب .

### الاتفاق الفرنسي الايطالي فاتح يونيو سنة ١٩٠٢

حصلت ايطاليا بموجبه في مقابل تنازلها لفرنسا عن المغرب على حرية العمل في طرابلس الغرب .

### الاتفاق الفرنسي الانجليزي ٨ ابريل سنة ١٩٠٤

كانت تسوية قضية مصر ميدانا لوقوع هذا الاتفاق بين الدولتين ، فقد التزمت فرنسا فيه بعدم عرقلة عمل الانجليز في مصر ، واعترفت انجلترا في مقابل ذلك بأن لفرنسا أن تسهر على سلامة المغرب ، وأن تعده بكامل مساعدتها فيما يحتاجه من اصلاحات ادارية واقتصادية وعسكرية ومالية ، وذلك نظرا لكون فرنسا دولة مجاورة للمغرب - الفصل ٢ - وينص الفصل المذكور كذلك على « تصريح حكومة الجمهورية الفرنسية بأنها لا تنوى تغيير وضعية المغرب السياسية » .

وينص الفصل السابع على ما يلي :

« قصد ضمانه حرية المرور بمضيق جبل طارق تتفق الحكومتان على عدم السماح باقامة تحصينات ومعازل استراتيجية كيفما كانت في الساحل المغربي الواقع بين سيلية والهضاب المشرفة على الضفة اليمنى فقط لنهر سو » .

ويعتبر الفصل الثامن ما لاسبانيا من مصالح تستمدتها من وضعها الجغرافي وممتلكاتها على الشاطئ المغربي للبحر الابيض المتوسط .

### الاتفاقية الفرنسية الاسبانية ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٤

صادقت أسبانيا في هذه الاتفاقية على الاتفاق الفرنسي الانجليزي في الثامن من أبريل ، وحصلت في المغرب على منطقة نفوذ لها ، وينص الفصل الثالث من هذه الاتفاقية على أنه : « اذا ما تعذر الابقاء على وضع المغرب السياسي أو وجود الحكومة المغربية ، واذا ما استحال حفظ هذا الوضع بسبب ضعف هذه الحكومة أو عجزها المستمر عن ضمانة الامن والنظام ، أو لاي سبب من الاسباب ، تقع ملاحظته من جانب الطرفين ، فان أسبانيا يكون في وسعها أن تقوم بعملها بحرية في الناحية المحددة في الفصل السابق ، والتي تصبح من الآن منطقة نفوذ لها » .

وكانت مدينة طنجة موضوع الفصل التاسع الذي نص على أنها ستحتفظ بصفتها الخاصة الناجمة عن وجود هيئة دبلوماسية فيها وعن مؤسسات بلدية وصحية .

ولكن رد فعل الدبلوماسية المغربية ضد هذه الاتفاقات ما فتىء أن أصبح شيئاً محسوساً .

فان جلالة السلطان مولاي عبد العزيز أجاب المبعوث الفرنسي الذي جاء اليه ليقنعه بضرورة تحقيق التعاون الفرنسي المغربي ، وليحاول الحصول منه على الاتفاقية الافرنسية الانجليزية بقوله :

« غريب هذا التعاون الذي تقترحه على فرنسا ، وهو أن أوزع مملكتي على الاجانب » .

وقد اتجهت الحكومة المغربية نحو المانيا التي وجدت فيها كفة التوازن المرغوب فيه ، فهذه الدولة لم تكن فحسب متوترة بسبب اقصادها عن المساواة الاخيرة ، بل أنها كانت تعتبر الاتفاق الفرنسي الانجليزي بمثابة تطويق للامبراطورية الالمانية ، لذا فانها لم تتردد في امداد الحكومة المغربية بأمن مساعدة دبلوماسية ، لا سيما وانها كانت قد حصلت عام ١٨٩٠ من المغرب على

معاهدة تفيد مصالح رعاياها ، وانها تلقت عام ١٩٠١ سفارة مغربية فوق العادة كلفت بتوثيق الروابط الطيبة بين البلدين .

وفي يوم ٣١ مارس ١٩٠٥ نزل غليوم الثاني امبراطور المانيا بطنجة حيث اُجاب مولاي عبد المالك عم السلطان ورئيس الوفد المغربي الذي جاء لاستقباله باسم جلالة السلطان مولاي عبد العزيز قائلاً :

ان زيارتي هذه هي لسلطان المغرب الملك المستقل ، وأتمنى أن يظل المغرب تحت سيادته العليا مفتوحاً لمزاحمة سلمية بين جميع الدول بدون أي احتكار ولا الحاق ، وبكامل المساواة ، وان زيارتي هذه لطنجة لتهدف الى اعلان عزمي على بذل كل ما في وسعي لحماية مصالح المانيا بالمغرب حماية فعالة ، وبما أنني أعتبر السلطان حراً كامل الحرية فأنني أريد أن أتفق معه وحده على الوسائل الكفيلة بحماية هذه المصالح .

وهذا التصريح الذي له مغزاه قد أحدث صدى عميقاً في العواصم الاوربية فرأت كل من فرنسا وأسبانيا مشاريعهما تنهار في اقتسام المملكة المغربية .

### مؤتمر الجزيرة الخضراء ٧ أبريل سنة ١٩٠٦

ولاحباط الاتفاقات السرية طلبت الدبلوماسية المغربية انعقاد مؤتمر دولي ، ولللمرة الثانية لم تأبه الدول بالمعارضة الفرنسية فاجتمع المؤتمر بالجزيرة الخضراء يوم ١٥ يناير ١٩٠٦ بحضور جميع ممثلي الدول الموقعة على اتفاقية مدريد لسنة ١٨٨٠ .

وبعد ما أعلن المؤتمر المبدأ الثلاثي الذي كان أساس المداولات وهو :

ا ( سيادة جلالة السلطان واستقلاله .

ب ( وحدة مملكته .

ج ( المساواة التجارية بين الدول الممثلة في المؤتمر .

قرر المؤتمر برنامج اصلاحات جبائية وجمركية التي رآها ضرورية لاقرار

الامن والرفاهية في المملكة المغربية .

وأهمية عقد الجزيرة المضى يوم ٧ أبريل ١٩٠٦ بالنسبة للمغرب تلخص

في ابقاء ما كان على ما كان بالمغرب واستبدال مبدأ التقسيم المقرر من طرف الاتفاقات السرية بمبدأ اعانة دولية لمغرب حر مستقل ، وبذلك أصبحت القضية المغربية قضية دولية .

وفي ظل هذه الحماية الدولية أمكن للمغرب أن يسوى بدون أي خطر مشكلة الانقلاب السياسي الذي وقع عام ١٩٠٨ حيث خلف مولاي حفيظ أخاه مولاي عبد العزيز فاعترفت بذلك الدول بدون صعوبة يوم ٥ يناير سنة ١٩٠٩ .

### انغزال المغرب السياسي سنة ١٩١١

ان الحادث الذي وقع في أجادير في شهر يوليو من سنة ١٩١١ (ارسال الباخرة الحربية الألمانية « بانطير » الى ميناء مغربي ) قد أفهمت فرنسا ان تحقيق مطامعها الاستعمارية يتوقف على ألمانيا فقرر عزمها على التفاوض اذن مع هذه ، وفي ٤ نوفمبر في نفس السنة أبرم اتفاق بين الدولتين حصلت فرنسا بمقتضاه على حرية كاملة للعمل بالمغرب في مقابل تسليم الكونغو بأفريقيا الاستوائية الى ألمانيا .

وينص الفصل (١) من هذه المعاهدة على ما يلي :

« تصريح الحكومة الملكية الألمانية بأنها نظرا لكونها ليس لها في المغرب سوى مصالح اقتصادية فإنها لن تعرقل عمل فرنسا الرامي الى امداد الحكومة المغربية بالمعونة من أجل ادخال جميع الاصلاحات الادارية والقضائية والاقتصادية والمالية والعسكرية التي هي في حاجة اليها لحسن تسيير المملكة المغربية ، وللتنظيمات الجديدة وما تتطلبه هذه الاصلاحات من تعديلات في الانظمة الموجودة» فهي على هذا توافق على التدابير الرامية الى تجديد النظام والمراقبة والضمانة المالية التي ترى الحكومة الفرنسية ضرورة اتخاذها باتفاق مع الحكومة المغربية مع تقييد عمل فرنسا هذا بحفظ المساواة الاقتصادية بين الدول في المغرب . وفيما اذا اضطرت فرنسا الى توسيع نطاق مراقبتها وحمايتها فان الحكومة الملكية الألمانية تعترف لفرنسا بكامل الحرية في العمل بشرط استمرار الحرية التجارية المقررة في المعاهدات السابقة ولن تضع أي عقبة في هذا السبيل وفي رسالة تحمل نفس التاريخ وجه كاتب وزارة الخارجية الألمانية رسالة

الى السفير الفرنسي برلين جاء فيها : « قصد توضيح الاتفاق المبرم بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٩١١ حول المغرب أشرف باعلام سعادتكم بأنه اذا ما رأَت الحكومة الفرنسية من الضروري فرض حمايتها على المغرب فان الحكومة الملكية الالمانية سوف لا تعرقل ذلك .

وهكذا فان الاتفاق الفرنسي الالمانى الذى أضيف اليه فى يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١١ اتفاق فرنسى أسباني يحدده ويحدد الاتفاقات السرية السالفة وهو لا يتم تطويق المغرب فحسب من الناحية الدبلوماسية ، بل يفتح كذلك باب المغرب فى وجه الحماية الفرنسية على مصراعيه .

وبما أن المغرب بقى وجها لوجه مع خصومه المعاندين فانه اضطر للدول عن النضال بقوة لا تعادل مع قوة هؤلاء الخصوم .

ونظرا لكون الحكومة كانت تهتم بتحديد الخسارة فانها لم تر بدا من الاستسلام للشروط المملأة عليها وهى المصادقة على اتفاقية برلين ، والموافقة على الحماية الفرنسية . غير أنها أبدت تحفظات فيما يخص الحماية ، ويتجلى طابع التحفظات من المذكرة المسلمة للحكومة الفرنسية من طرف السفير المغربى بباريس ، فقد صرح جلالة السلطان عبد الحفيظ فى هذه المذكرة قائلا :

« اننى ألفت نظر الحكومة الفرنسية الى كون المغرب لم يخضع منذ الفتح الاسلامى لاية دولة أجنبية كمستعمرة ، وانه ما فتى يتمتع باستقلاله منذ ثلاثة عشر قرنا ، فلهذا السبب لا يمكن تشبيه المملكة المغربية ببلاد مستعمرة » . ان المقاومة التى أبدتها آخر ملك للمغرب المستقل قبل امضاء عقد الحماية لمفجعة حقا ، فقد فكر جلالة السلطان مولاي عبد الحفيظ أولا فى تحكيم أوروبا ضد فرنسا ، غير أن معظم الدول كانت أغراضها قد أشبعت فلم تر ما يدعو الى محاولة وضع القضية المغربية على البساط الدولى من جديد فظهر له اذ ذاك أن التنازل عن العرش هو أشرف الحلول حيث قال للوزير الفرنسى رينو : « اننى أفضل التنازل عن العرش على أن أسبب فيما يحط من قدرى وأن أدخل فرنسا الى مملكتى » . ولكن فرنسا عارضت فى ذلك لانها لم تكن تريد هذا التنازل حيث كان يهمها بالعكس أن تظهر لاوروبا أن الحماية لم تفرض بالقوة . وهكذا فان م رينو الذى تولى تسيير هذه المذاكرات الشيطنة مستخدما تارة

الوعد ، وتارة الوعيد قد وصل - كما يلاحظ ذلك م روبر رولو في كتابه على هامش الكتاب الأصفر - الى توقيع معاهدة ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ في الساعة الحادية عشرة من هذا اليوم فتم بذلك نجاح مأموريته الطويلة .  
ويجب أن نلاحظ أنه في هذا التاريخ كانت فاس عاصمة المغرب محتلة من طرف السلطات الفرنسية وانها عاشت طيلة شهر بعد ذلك تحت الارهاب ، حيث انطلقت البطاريات الفرنسية وتوالت الاعدامات ، وفرضت على السكان ذعيرة قدرها مليون من الفرنك لقيامهم ضد المعاهدة ، وأمام هذه الحوادث الدامية عزم مولاي عبد الحفيظ على التنازل عن العرش فأجابه الوزير الفرنسي قائلاً : « سأعارض ذلك بالقوة اذا اقتضى الحال » . ولكن في ١٢ أغسطس ١٩١٢ تخلى السلطان مع ذلك عن الحكم وغادر وطنه معللاً تنازله عن عرشه بقوله : « لم يبق لي أي نفوذ حتى صرت لا أكاد أبذل النصح الا بشق الانفس وقد كبلت رجلاي وسلسلت يداي وقيل لي احكم » .

وقد كتب م شوفيل في كتابه : « مبدأ الدولة والجنسية بالمغرب » : « ان تاريخ المغرب الدبلوماسي يبرهن على أن سيادة السلاطين وجدت الفرصة منذ زمن طويل وفي مرات مختلفة للظهور في الميدان الدولي » .  
ويستخلص من تحليل مختلف المعاهدات أمران جوهريان :

١ - أن سلطان المغرب يظهر فيها على قدم المساواة مع الملوك الذين يتعاهد معهم .

٢ - ان مبدأ سيادة السلطان ترايا وسياسيا لم يكن قط موضوع شك ، بل كان بالعكس معترفا به ومصرحا به بوضوح في مختلف المعاهدات ، لا سيما ابتداء من القرن التاسع عشر .

ورغم بعض المظاهر المنافية لذلك ، وكذلك بالرغم عن الاسباب الحقيقية للضعف والانقسام فإن المغرب القديم كان دولة مستقلة تثبت باستقلالها ، وتتشدد في مسألة الحدود ، وتعلق أكيد التعلق برعاياها ولا تسمح لهم بالاحتماء بالحماية الاجنبية الا بصورة محدودة .

وقد ظلت سيادة سلاطين المغرب محفوظة في مبدئها لا فيما يخص علائق البلاد مع الدول أو الرعايا الاجانب فحسب ، بل أيضا فيما يتعلق بكل ماله صلة بتحضير القوانين الوطنية وتطبيقها على الرعايا المغاربة .

# نظام المغرب قبل الحماية

## ١ - النظام السياسي والاداري

ما لبث المغرب بعد أن أصبح دولة اسلامية مستقلة أن انتظم سياسيا واداريا حسب قواعد القانون الدستوري الاسلامي .

فأنيطت مقاليد السلطة منذ ذلك الحين بملكية تسهر على مصالح الشعب الدينية والمادية .

وهذه الملكية وراثية مبدئيا ، ولكن اذا ما تقاعس الملك عن القيام بواجباته الاساسية ، فان الرعايا يتحللون من واجب الطاعة بحيث يصبح في الامكان تبديل الملك طبقا للشروط المقررة في الشريعة . ويتركب المجلس المكلف بتعيين خلفه من هيئة العلماء والشرفاء والوزراء .

## ١ - الحكومة المركزية :

الملك ، والملك هو الذي يقبض على مقاليد البلاد بصفته المزدوجة كرئيس سياسي ورئيس ديني . وهو يجمع بين السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية . وان مجالس العلماء كثيرا ما يتاح لها أن ترشده مباشرة أو غير مباشرة في الشؤون العادية وفي الظروف الحرجة على الاخص .

## الحكومة الملكية

وتتألف الحكومة الملكية من نوعين : من المصالح : مصالح البلاط ، ومصالح الدولة .

## ١ - مصالح البلاط

يناط أمر مصالح البلاط بموظفين ساميين ليس لهما مع ذلك رتبة وزير ، وهما الحاجب وقائد المشور .

فله حاجب الاشراف على الادارة داخل القصر وعلى مواد مخيمات الملك ، وكذلك حراسة الطابع الذى يجب أن تذييل به جميع الوثائق الرسمية الصادرة عن الملك .

وتتركب المصلحة التى يشرف عليها الحاجب من هيئات يسند أمر كل منها الى موظف مسئول . وهى تتكون من أصحاب الاروى والفرايكية ، والجزارة ، وأصحاب الشاى والفرش وأصحاب الوضوء والماء .

أما قائد المشور فإنه مكلف بالسهر على القصر وعلى الحفلات الخارجية . فهو الذى يتولى الاشراف على الحفلات الرسمية ويكون فى ذلك لسان السلطان . وله مهام أخرى صعبة ، مثل القاء القبض على الولاة أو كبار الموظفين الذين يخونون واجبهم .

ويعمل تحت اشراف قائد المشور ثلاثة فروع :  
فرع المشاورية الذين يختار من بينهم حملة المظلة والرايات فى الحفلات الرسمية .

فرع المسخرين وهم فى الغالب فرسان يكلفون بالبريد الحكومى فى الاقاليم  
فرع الفرادا وهو الحرس الملكى الشريف .

## ٢ - مصالح الدولة ( المخزن )

يعين الملك فى ادارة شئون البلاد ووزارة مكلفة - تحت اشراف الصدر الاعظم - بتطبيق القرارات الملكية والسهر على حسن سير مختلف مصالح الدولة ، وحفظ التقاليد السياسية فى المملكة .

ويجمع الصدر الاعظم بين رئاسة الوزارة ووزارة الداخلية . ويشرف على جميع الادارات المركزية والاقليمية . كما يعين بعد مصادقة جلالة الملك كبار الموظفين المدنيين والعسكريين . ويعينه فى ادارة سياسة الدولة داخليا وخارجيا وزراء يتغير عددهم تبعا لمقتضيات الظروف .

وتتألف الحكومة المغربية عادة من :

- الصدر الاعظم وهو وزير الداخلية .

- وزير الشؤون الخارجية
- وزير الحربية
- وزير المالية
- وزير العدلية

### الممثل السلطاني في طنجة

وفي طنجة حيث تقيم منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر الهيئة الدبلوماسية يمثل جلالة السلطان نائب تتخاير الحكومة المغربية بواسطته مع الوزراء المفوضين عن الدول بالمغرب •

### ب ( الولاية الاقليمية )

يتولى النيابة عن السلطان في النواحي ولاة مديون يطلق عليهم اسم العمال أو الباشوات • وهذا الاسم الاخير يدل على أن لهذا الوظيف صبغة عسكرية • وبها أن هؤلاء الولاة يمثلون السلطة المركزية ، فانهم يضيفون الى الاختصاصات العسكرية والجبائية ، مهمة السهر على الامن ومراقبة الادارات المحلية ، كالمباضات الجبائية والاملاك المخزنية ونظارة الاحباس وهلم جرا • • وهم الذين يتولون توزيع الضرائب وتجنيد الجند ، كما يتولون بعض اختصاصات القضاء ، حيث تنظر محاكمهم في المخالفات والاجرامات ( من ضرب وجرح ) وتنقسم كل ناحية الى اقسام يقوم على رأسها شيخ يعينه الوالى ، وهو الذى يتولى الوساطة بين العامل وبين الناس •

• ويوجد في الناحية مجلس جماعة يتألف من أعيان يختارهم فى الغالب الرعايا أنفسهم ، ومهمتهم اعطاء رأيهم فى ادارة مصالح الجماعة •

وتتجزأ الاقسام المذكورة الى مداشر يمثلها مقدم يتولى أمرها تحت اشراف الشيخ •

### ٢ - النظام العسكرى

١٢

بما أن الخدمة العسكرية لم تكن اجبارية فان الولاية يكلفون بتجنيد الجند

كلما احتاجت الدولة الى عسكر • ولكن عند ما يهدد الوطن خطر خارجي ،  
يقرر النكير العام ، ويجند الناس مبدئيا على نسبة جندي واحد عن كل دار •

ولم يكن يتوفر بالمغرب في البداية جهاز عسكري قومي • ولكن اتساع  
نطاق الامبراطورية المغربية في القرن الثاني عشر وانتصارات المغرب الباهرة  
في اسبانيا وشرقي المغرب دفعت ملوك المغرب الى القيام بتحويل النظام العسكري  
على أسس جديدة ، فتألفت نواة جيش دائمة • وكانت الكتائب الشعبية تتركب  
من كثير من المتطوعين والمرتزقة من أندلسيين وزواويين وأتراك ومسلمين  
جدد وغيرهم •

وفي سنة ١٦٠٣ ، أي في عهد المنصور السعدي ، بلغ جنود المرتزقة  
خمسين ألفا • ومنهم كان يتكون بعض الاختصاصيين في الرماية والهندسة  
العسكرية •

وأعظم جيش مهني عرفه المغرب كان على عهد المولى اسماعيل • فقد جمع  
هذا السلطان منذ بداية عهده ( ١٦٧٢ - ١٧٢٧ ) جميع السودانيين الواردين  
على المغرب ابان الحملة السودانية التي وقعت عام ١٥٩١ • فكان يستخدمهم  
كجنود بعد أن يدرّبهم تدريبا جيدا • فتألف من ذلك عسكر من السودانيين  
يبلغ أفراده ٧٥ ألف مقاتل وزعهم السلطان على حاميات المملكة • ومنذ ذلك  
أصبح معظم قواد الجيش يختارون من بين هذه النخبة •

وفي أوائل القرن العشرين كان الجيش المغربي منظما كما يلي :  
على رأس الجيش وزير الحربية الذي يتصرف في شئون الجيش ويأتي بعده  
القائد الأعلى ( قائد المحلة ) •

### المشاة

يتألف هؤلاء المشاة من :

قائد الرحى - يمكن تشبيهه بضابط من رتبة كولونيل - يتولى قيادة طايور  
ويساعده خليفة ( اليوتان كولونيل ) • ويتركب الطايور من خمسمائة رجل ،  
وينقسم الى خمس مئات ( آليات ) •

قائد المئة - يمكن تشبيهه بضابط من رتبة قبطان - وكل مائة تنقسم الى

- ثمانى كتاب فى كل واحدة اثنا عشر رجلا
- المقدمون يتولون قيادة الكتيبة

### الخيالة

قائد المشور هو الذى يتولى القيادة العليا للخيالة ثم يأتى بعده رؤساء السرايا ( السرية الواحدة يتراوح عدد رجالها بين ٢٠٠ و ٦٠٠ فارس ) وتنقسم السرية الى كتاب •

### الرماة ( الطيحية )

يكون الرماة طواير خصوصية يشرف عليها قواد الطيحية

### تدريب الجيش

ولم تتردد الحكومة المغربية فى جلب بعثات عسكرية أجنبية لتدريب الجند وترقية سلاحهم • وهكذا كانت بفاس حوالى ١٩٠٧ مثلا :

بعثة ايطالية تتألف من كولونيل وضابطين مكلفين بتسيير المعمل الملكى للأسلحة ، ومصنع أعتدة الرماية •

بعثة فرنسية تتركب من قومندان وليوتنان مختص بالرماية وآخر بالمشاة وطبيب عسكري وضابطين •

بعثة انجليزية تحتوى على ماجورين وضابطين •

### ٣ - النظام القضائى

كانت ادارة العدلية بالمغرب دائما دقيقة • فالملك هو مبدئيا القاضى الاعلى ، ولكنه ينب عنه عمليا فى خطة القضاء قضاء يصدرن الاحكام باسمه تحت مراقبة وزير العدلية •

وجميع رعايا جلالة الملك خاضعون للمذهب السنى باستثناء اليهود الذين يتمتعون دائما بفضل تسامح ملكى واسع ، بحق اسناد مهمة القضاء الى اُخبار يحكمون حسب الشريعة الموسوية فيما يخص نظام الانكحة والموارث ، واذا كان كل من المتداعين يهوديا •

## القاضي

القاضي هو الحاكم العام في جميع الشئون ، وهو الحكم الوحيد . وتمتد اختصاصاته الى جميع الميادين . ويمكن استئناف أحكامه أمام قاض آخر ، ثم أمام وزير العدالة .

ولكن بعض التحويلات أدخلت على مبدأ وحدة المحاكم لفائدة :

١ - الولاية الاقليمية من الباشوات والقواد الذين لهم أن ينظروا في بعض القضايا الخارجة عن نظام الانكحة والمواريث والملكية ، كالمخالفات والجرائم .

٢ - محاكم قنصلية أحدثت بمقتضى اتفاقيات مبرمة بين المغرب ودول أجنبية ( نظام الامتيازات ) وتنص هذه الاتفاقيات على أن الرعايا الاجانب غير المسلمين الذين يقيمون بالمغرب ، يخضعون الى قانونهم الوطني ، ويتحكم في شئونهم قناصل دولهم فيما يخص الخلافات الناجمة بينهم باستثناء الخلافات العقارية التي يرجع النظر فيها الى المحاكم المغربية . والقنصل المختص هو قنصل المدعى في القضية . ولكن في النزاعات القائمة بين المغاربة والرعايا الاجانب تبقى المحاكم المغربية مختصة اذا كان المدعى مغربا .

المغرب  
الحكومة المغربية قبل الحماية الفرنسية

